فنون الأدب العربي

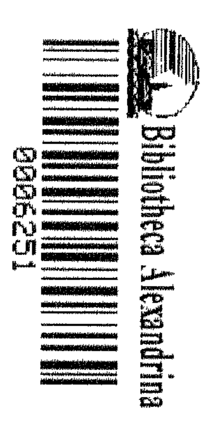
الفن الغنائي

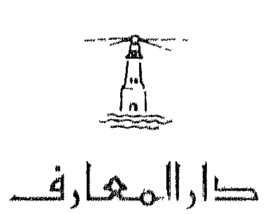
٤

المديح

بقلم

سامي الدهان





دار المعارف

المدِيح

فنون الأدب العربي
الفن الغنائي
٤

المديح

بقلم
سامى الدهان

الطبعة الخامسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المدح فنّ الثناء والإكبار والاحترام ، قام بين فنون الأدب العربي مقام السجل الشعري لجوانب من حياتنا التاريخية ، إذ رسم نواحي عديدة من أعمال الملوك ، وسياسة الوزراء ، وشجاعة القواد ، وثقافة العلماء ، فأوضح بذلك بعض الخفايا وكشف عن بعض الزوايا ، وأضاف إلى التاريخ — صادقاً أو كاذباً — ما لم يذكره التاريخ ؛ فساعد على إبراز كثير من الصفات والألوان لم تكن تعلم لولاه . وزاد في شهرة أناس كثيرين أحاطهم بالرعاية ، ورفعهم إلى الذروة فجعلهم في مصاف الأعلام ، وأغفل زملاء لهم كانوا أحقّ بالذكر وأجدر بالشهرة ، ولكنها الحظوظ يوزّعها الشعراء ، فينال الثناء بعضاً ويحرم بعضاً ، كما قال يزيد الحارثي :

وإذا الفتى لاقى الحمام رأيته لولا الثناء كأنه لم يولد

ولذلك كان المديح في حضارتنا كالبرقيات التاريخية تشير في اقتضاب إلى الأحداث ولا تسهب في تحليلها ، شأن الشعر دائماً ، وقد تكون فيها دعاوة وحزبية وشطط وإسراف . ويكون فيها حقّ وصدق وإنصاف ؛ لذلك يجب أن نقف منها موقف النقد والشك والتمحيص ، كما نقف من كتب التاريخ سواء بسواء .

وسبب ذلك أن الشعر كثيراً ما تغلب عليه العاطفة والخيال ، وتدفع إليه الإقطاعات والهدايا والأموال ، أو تسوقه السياسة والعصبية والمذهب والدين ، والخوف والبطش والرغبة والرهبة ، يقال في ظروف خاصة وفي ساعات معينة ،

يروج بعدها فى الأسماع والقلوب ، ويتمكن من مشاعر الناس ، ويسير فيها فى يسر ولذة لا تتاحان للتاريخ والمنطق والفلسفة .

وقد كان همّ المادحين فى أكثر مدائحهم للرؤساء والحكام أن يجسّموا الصفات الطيبة والمزايا الرفيعة والأخلاق السامية ، أو أن يخترعوها ويلصقوها بالممدوحين ليربحوا فى حلبة المديح ، وليرفعوا لواء الممدوح بين الناس ، فلعلهم فى ذلك كالصحافة الحزبية لعصرنا ، ترى الخير كل الخير عند زعمائها ورؤسائها وقادتها ؛ أو لعلهم كالرسامين المصورين يستطيعون أن يظهروا أجمل ما فى الوجوه وأحسن ما فى المشاهد ، فيصورون من جانب واحد ، هو جانب الجمال والحسن ، ويخفون المعالم الأخرى بريشة بارعة تصحح وتلون وتبدع ، وتسلط الأنوار والظلال ، وتتلاعب بها ؛ فالمدح فى هذا على عكس الهجاء .

وقد استعرضنا ما كان للعرب فى هذا الباب فرأيناه كثيراً ضخماً منذ الجاهلية حتى اليوم ، يشكل ديواناً كبيراً وجزءاً خطيراً من أدبنا ، يحتل موقعاً هامًّا ، لأنه يُعنى ، فيما يعنى به ، بوصف الرجال وامتداح مزاياهم ، والتحبب إليهم والتقرب إلى مقامهم بأحسن أسلوب وأبرع صورة .

والمدح كثير الأنواع لا يكاد يحصره تقسيم أو تبويب ، ولا يوفيه كتاب صغير ؛ ولكننا ننشئ للشادين ، فنكتفى بغيض من فيض ؛ ونعرض منه نماذج فى مديح الخلفاء والملوك ، ومن أعانهم من أمراء ووزراء ، وقواد ووجهاء ، ومن لمع فى الأقطار من علماء وأدباء ، وما كان من المديح الدينى ، والإشادة بفضائل النبى الكريم ، والثناء على أهل بيته والدعوة لهم فى الخلافة والحكم ، وما وقع فى مديح الأوطان والبلدان والمديح السياسى عامة ، لعلنا نتعرف إلى المثل العليا التى كان يعجب بها شعراؤنا على اختلاف العصور والأوطان .

ونحن لا ندعى الإحاطة والشمول ، فإنها محاولة أولية فى باب جديد من أبواب التصنيف والتأليف ، جعلناه فى صفحات يسيرة وأسلوب مبسّط ، ليكون قريباً من الأذهان لطيف المتناول ، نافعاً على إيجازه . والله من وراء القصد

سامى الدهان

تمهيد

١

المديح فى الآداب العالمية :

منذ فجر التاريخ أحس الإنسان بالفوارق الاجتماعية بينه وبين أخيه الإنسان ، وشعر باختلاف المواهب والقيم عند الناس ، ورأى الأقدار تضع وترفع وتعطى وتمنع ، لذلك سعى إلى رضا مَنْ هم فوقه ، وتجمل حيالهم بالقول ، فوقف منهم موقف الاحترام والتودد ، فكانت أقواله تعبر عن المديح . وسواء أكان هذا المديح صادراً عن قرارة نفسه أم من أطراف لسانه ، فهو يقرّ بالرياسة والزعامة لمن يتصور أنهم سبقوه بالغنى والشجاعة والقوة والفهم والذكاء . فهو يشترك مع الناس جميعاً فى النظر إلى الزعيم والقائد والوجيه والعالم والغنى والسيد والأمير نظرة خاصة ، ويشترك معهم كذلك فى مديح هؤلاء حين يعرض له القول أو يتصدى للحديث والبيان شعراً ونثراً .

ولسنا ندرى كيف كانت أوائل المديح عند الإنسان الأول ، فقد غابت جذورها مع ظلمات التاريخ . وبقى شىء يسير على الأحجار القديمة تحمل فى صفحاتها حمداً وثناء لبعض الأمم ، تشيد بالقواد أو الملوك وتتحدث عن انتصاراتهم ومواهبهم ، وتمنحهم صفات وألقاباً ونعوتاً تسمى فى عرف الأدب بالمديح . وأوراق البردى والمسلات والأهرام والقبور تنقل إلينا صيغاً كثيرة لهذا المديح اكتشفت على شطآن النيل وفى صحارى مصر وقصور بابل وتماثيل اليونان والرومان ومعابد الهند والصين لا تختلف فى عباراتها عن إعلاء شأن الممدوح من بيان شجاعته وسطوته وسيطرته وقوته وذكائه وعظيم فهمه وعلمه .

وسواء أكانت هذه المدائح على ألياف الخيزران أم نسيج الحرير أم أوراق النبات أم الأحجار ؛ فهى تعبر عن نظرة الاحترام . فقد نشأ الإنسان فى الطبيعة على خوف من القوة والبأس والبطش والهول . لذلك مجد البحر والنهر والرعد والثور والفيل والأسد والمطر والشمس والقمر والنار والهواء والجبل وغيرها ؛ فقال عبارات المديح وتوجه بها إلى هذه القوى خاضعاً خاشعاً معجباً . فلما أحس بوجود الإله خضع لجلاله وانحنى أمام سيطرته وبأسه . فجعل لكل شىء إلهاً أول الأمر ، ثم توجه إلى الآلهة بصلواته وعبادته ، وهذه الصلوات والدعوات إن هى إلا مديح وتضرع سواء أكانت فى التشفع أم التماس الخلاص من مرض أو خطر ؛ أم كانت مجرد عبادة خالصة وإحساس عميق .

وفى جدران المعابد بمصر اكتشف العلماء « كتاب الموتى » ، وقرءوا فيه من الدعوات والعبادات ما يفيدنا فى فهم أدبهم ومديحهم . ومنها : « السلام عليك أيها الإله الأعظم : جئتك يا إلهى متحلياً بالحق متخلياً عن الباطل ، فلم أظلم أحداً ، ولم أسلك سبيل الضالين لم أحنث فى يمين ، ولم تضلنى الشهوة فتمتد عينى لزوجة أحد من رحمى ، ولم تمتد يدى لمال غيرى ، لم أقل كذباً ، ولم أكن لله عاصياً ، ولم أسع فى إيقاع بعبد عند سيده » .

وفى هذا الدعاء اعتراف بإله الحق ، وخشوع له وخضوع لجلاله ، وفيه نظرة القدماء إلى الرجل الصالح فى الدنيا ممن يستحق الثواب : فهو من لا يظلم ولا يحنث ولا يخدع ولا يسرق ولا يكذب ولا يخالف الوعد ؛ وهى صفات ظلت على الزمان موضع المدح منذ عهد المصريين إلى اليوم ، لم تتغير ولم تتبدل ، فالفضائل هى الفضائل والمزايا هى المزايا .

وفى الأدب المصرى هذا ، اكتشف العلماء كذلك على ورق البردى شكاوى الفلاح وقد توجه إلى سيده بقوله : « يا سيدى يا عظيم العظماء ! يا أغنى الأغنياء ! ومن ليس فوقه إلا عظيم أعظم ، وغنى أغنى . . . إن لسانك لسان الميزان وقلبك وشفتيك ذراعاه ، فإذا لم تعدل فمن يكبح الشر ؟ . . . يأيها

المدبر العظيم ، لا تحرمن فقيراً مثلى من ملكه فمال الفقير نفسه ، ومن اغتصبه كتم نفسه » . وفى هذا القول من الخضوع والخنوع ما يشبه أقوال كثيرين عاشوا بعد هذا الفلاح عدة قرون يستجدون الملوك والأمراء والزعماء بمديح يشبه هذه الصيغ كأن الزمان لم يتغير ، أو كأن المعانى لم تتبدل .

وفى الآداب الصينية والهندية مثل ما كان عند الأمة المصرية القديمة من نظر إلى الزعيم الكبير والإنسان الكامل والمثل الرفيع ، تجدها فى كتبهم الدينية وملاحمهم التاريخية ، مثل كتاب كونفوشيوس أو « ماها بهارتا » أو « رامايانا » ويسيطر على كثير من صفحاتها روح الإكبار والاحترام وتعابير المديح والتقدير .

وكان فى الأدب الفارسى القديم ما لآداب الصين والهند من روعة الحب والاحترام ، فقد آمن « زرادشت » فى كتابه « الأفستا » بإله واحد عظيم ، وسطر لقومه صفات الرجل الكامل ، وبين الصلاح والفساد والخير والشر ، ونهى عن الاعتزاز بالحسب والنسب ، وإنما ساق الشعب إلى العمل والجد .

وفى التوراة والتلمود خشوع وخضوع لملك الملوك ، ودعوة كذلك إلى تقديس البطولة وإكبار الزعامة ، وقصص كثير عن الأقوياء . وفيهما صلوات لإله البشر . وفى مزامير داود صلاة تتوجه إلى الله هذا بعضها : « أنت مالك كل أمرى ، لأنك واضعى بيدك فى بطن أمى ، أحمدك وأشكرك فقد أتيت بالأعاجيب فى خلقى ، كونت عظامى فى الخفاء ، وصنعتنى على عينك وقدرت أمورى فى كتابك . . . أنا لا أحصى نعمك فهى أكثر عدداً من الرمل » . وهذا مديح دينى اقتبس منه المادحون والشعراء صوراً وتعابير تراها فى ثنايا الكتاب .

وفى الآداب اليونانية أساطير تشبه ما جاء عن أمم الأرض فى أساطيرها فهى تعد الآلهة قوى عظيمة سحرية تعدو حدود العقل والخيال معاً ، وتقص سير الحروب وانتصارات الأبطال ، وتمجد الشجاعة والبطولة والخلق الراجح وتشيد بالخير والعدل والحق ، وقد خلف القوم ملاحم كبيرة كما خلف الهنود والفرس ، فاشتهرت الإلياذة والأوديسة بوصفهما للمعارك والمجازر ، وإبداعهما

فى رسم الجيوش المحاربة حتى لقد قصرت عنها الأمم فى ذلك ، فوصفت الإلياذة أتباع « أخيل » فى الحرب فشبهتهم بذئاب فى قلوبها بأس شديد عادت بعد أن نهشت وعلا وفى أنيابها بقية من دماء ، ثم ازدحمت على الماء لترتوى ، فلما امتلأت بطونها وقفت تنفث الرعب ، قال هوميروس : « لو رأيت هذه الذئاب فقد رأيت رجال أخيل العظيم قوة ومظهراً حين دعاهم الداعى لهذا القتال المخيف » .

وهذا مديح لأخيل ورجاله فى الإلياذة نقع على مثله فى الأوديسية وفى الشعر الشعبى للإغريق ونثرهم وأناشيدهم ومسرحياتهم ، فيه المثل العليا كالشرف وسمو الخلق والبطولة والكرم ؛ وتلمح له شبيهاً كذلك عند الرومان وملاحمهم اللاتينية ، فقد وصفوا المعارك والحروب والأبطال والشجعان ، وامتدحوا مواقفهم المثيرة ، ومزجوا ذلك بإشراك عناصر الطبيعة ، ورسموا ما كان يثير الخوف منها ، وبسطوا موقف الفرسان من حرب الإنسان والطبيعة .

ولما كان القرن الخامس عشر للميلاد فى الغرب ، قام الإنكليز برسم الرجال وامتداح الأبطال ، ونهض الفرنسيون فى الجنوب ينشدون المديح على لسان شعراء التروبادور ، وهم من طبقة الفرسان والسادة الأشراف ، وقد قلدوا فى كثير من المديح شعراء الأندلس من العرب ، فصوروا البطولة والشجاعة والكرم . ونشأ كذلك فى شمالى فرنسة شعراء المغامرة يرسمون البسالة ويصفون الشجاعة فى ملاحم قوية فيها أمجاد الرجال وكرم الأخلاق . ولم تتخلف ألمانيا عن فرنسة وإنكلترة وأسبانيا فى هذا الميدان ، وإنما نظمت فى مديح الأبطال وسير الزعماء والقواد والملوك ما يشبه الإلياذة والأوديسة .

وظل أدباء الغرب ينسجون على منوال أجدادهم فى الأساطير ورسم الأبطال حتى كثرت المسرحيات والدواوين فى مديح الزعماء والملوك والقواد والكتاب ، مما يطول بيانه وحصره والتعرض له فى هذه الصفحات القليلة ، فقد أحيوا مسرحيات القدماء من اليونان والرومان ، وأعادوا قصص الفرس والهند ، فوصفوا البطولة والشجاعة ، واستفادوا من أشخاص التوراة ومعارك الأمم القديمة وقوادها ، فكانوا فى المديح كما كان أولئك ، ولكنهم برزوا فى المديح

القومي مما نسميه « الحماسة » ولها كتاب غير هذا يعرض لهم ويفصل الأمر فيهم .

المديح فى الأدب العربى :

بسطنا ما كان للأمم القديمة فى الشرق والغرب من أدب فى المديح ، ورسمنا فى عرض سريع تقديس الآلهة وتكريم العظماء وإكبار الزعماء والملوك والقواد والعلماء ؛ وذكرنا ما كان منها خالصاً للدين وما كان منها للدنيا ، ورأينا أن الأمم جميعاً تشترك فى خطب الود عند الأقوياء وإظهار أياديهم وصفاتهم ، وما لهم من خلق رفيع وشجاعة نادرة وتفوق كبير . وسننظر الآن إلى العرب كيف كانوا يرون الصفات المثلى والفضائل البارزة فى ممدوحيهم ، ومن أين يأتيهم الإعجاب ويبلغهم التقدير ليرسموا مديحهم وإعجابهم وتقديرهم فى قصائدهم .

لقد قامت فى قبائل العرب حروب واستعرت بينهم وبين جيرانهم معارك ، فثارت حرب البسوس قبل الهجرة بنحو قرن ونصف القرن ، وأتانا شعر كثير نسب إليها ، وقيل فيها ؛ وجاءتنا كذلك أشعار أيامهم وما كان من مديح لأبطالهم وزعمائهم ، فقد كانت حياتهم تسوّد رئيساً وتملك زعيما وترفع قائداً . وكانت الأديان المختلفة عندهم تبعث على العقيدة بوجود إله يذكرونه فى شعرهم ويتوجهون إليه ضارعين خاشعين ، فكانت الأسباب إذاً متوافرة لخلق المديح ، وكانت الموضوعات متيسرة فى المديح الدينى والسياسى والاجتماعى كما توافرت عند غيرهم من الأمم ، ولكنها زادت عندهم بسبب الفقر المدقع فى هذه الصحراء القاحلة ونضوب موارد الرزق وفقد الصناعات ، وندرة البساتين والغياض ، وشح المياه ؛ فكثر المحتاجون وقل الأغنياء وعم الدهماء نظرة خاصة إلى الإحسان والرفق والعون وحماية الجار لا نراها عند غيرهم من الأمم بمثل القوة التى استولت على نفوسهم ؛ لذلك كثر القتال فى سبيل الحياة ، وتنوعت أساليب البطولة والبسالة من خروج فى القفر ، وصراع لوحش البر ، وقتال للأعداء والمغيرين واللصوص . وسارت فى القبائل سيرة الكرماء والأجواد والسادة الزعماء والوجهاء

والمصلحين . فلما رحلوا قبل البعثة المحمدية إلى الشام وأطراف العراق رأوا عند إخوانهم ملوك العرب ما يشجع على الكسب والترف والنعيم ، فعاش شعراؤهم على مقربة من هؤلاء الأمراء يتناولون من هداياهم ويتناولون بشعرهم عطايا وجوائز ، فكان مديح الملوك ، وكان المديح السياسى على شكل قبلى ينتصرون للغساسنة حيناً وللمناذرة حيناً ، ويضيفون بذلك إلى ديوان المديح قصائد خالدة من غرر الشعر .

وظهر الرسول الأعظم فانقسم العرب فى اتباعه ، ووقف فريق معه وفريق راح يناضله ؛ فنشأ شعر دينى إسلامى فى المديح يشيد بالرسالة والدعوة والرسول ، ويكبر الخلق الرفيع والبطولة الخارقة ويبشر بالدين الجديد فيمدح مزاياه ، ويمهد الطريق للشعراء الإسلاميين بعده على مدى القرون فى امتداح الإسلام والنبى الكريم .

ولما كان الفتح وانتقل المسلمون إلى الشام نقلوا عصبيتهم ونزعاتهم القبلية فانصرفوا إلى حروب مذهبية ودينية وسياسية ، وأكثروا فيها من ذكر الأبطال والقواد والملوك والأمراء ، وغذاهم خلفاء الأمويين بالذهب فانبسطت رقعة المديح السياسى والاجتماعى والدينى . ولما انتقلوا إلى العراق كثر هذا المديح وتنوع ؛ فدخل الترف وولدت طبقة ناعمة غنية وطبقات متوسطة تعيش بقربها وتستفيد من جوارها ونعمها ، وطبقة بائسة لا تصل إليها ولا تبلغ مجالها ، فتمدح من فوقها وتثنى على من ينعم عليها ؛ أو تتحرق بمديح لعله يبلغ إلى المسامع والآذان ، وكان الشعراء فى الطبقة المتوسطة تتقرب وتمدح وتتصل بالسياسة حيناً وبالمذاهب الدينية والاجتماعية أحياناً ، وتثنى إلى ذلك على القواد والعلماء والوجهاء .

وتفرقت بعد ذلك دول الإسلام شيعاً ، وتقسم الملوك مناطق العالم الإسلامى ، فازدادت موارد الرزق أمام الشعراء وتفتحت أبواب المديح لكثير منهم ، فزادت الوظائف — كما نقول اليوم — وأصبح لكل شاعر أن يطمح فى أن يسافر إلى أمير يكفيه ، أو ملك يلبيه ، أو قائد يحميه . وامتلأت دواوين المديح بقصائد طويلة ، اخترع الشعراء فيها حيناً ووقف خيالهم أحياناً ، فقد ألم إخوانهم قبلهم بكثير من المعانى ؛ وضاقت سبل الاختراع فأعادوا الصور

والتراكيب ، وتضاءلت ينابيع المديح وخفّ معينه ، فلن يرتوى الشعراء من بحر خضم كما كانوا ، ولذلك ألحوا على القديم وبدلوا فى مبانيه وصوره ، وأعادوا وكرروا حتى سقط المديح البليغ ، كما سقط العالم السياسى للإسلام فى ظلمات داجية .

فلما كان القرن العشرون عادت جذوة المديح إلى النفوس ونشأ فى مصر شعراء حول الملوك والخلفاء يتجهون حيناً إلى قصور الآستانة وحيناً إلى قصور القاهرة ، أو يترددون حول الوجهاء والزعماء والعلماء ، أو يطرقون أبواباً جديدة فى امتداح البلدان والأوطان ، وما زالوا كذلك إلى اليوم ؛ وسيظلون كذلك فى الأقطار العربية ، ما دام الشعر وحده لا يروج إلا عند ذى سلطان أو ينفق عند ذى وجاهة ومكانة ، فهو اليوم كما كان من قبل وساطة للمال والرفعة والشهرة ، يقوم عند صاحبه مقام الأسرة والقوة والشهادة العلمية ، لذلك جعله كثير من الشعراء سبيلا لمكانة سياسية أو نيل كرسى فى الحكم . فالآذان ما تزال سليمة تقود المديح وتكبر الشعر المتين ، وتعرف أن خيبة الشاعر فى مديحه تدفعه إلى لون آخر من الشعر هو الهجاء ، وهناك الطامة الكبرى والتشهير أو الفضيحة ، والعاقل من ابتعد عن لسان الشر أو اشترى الحمد والثناء والمديح

وسنبسط ألوان المديح فى الأدب العربى كما تقلب على العصور الأدبية كلها ، ناظرين إلى نوعه فى تصنيف جديد ، نعده محاولة فى تقسيم أبواب المديح ، آملين أن لا نجانب الصواب فى فهمه وعرضه وتحليله ؛ لعلنا نبلغ الفائدة المرجوة من كتب هذه السلسلة التى تهدف إلى البساطة واليسر فى الإحاطة بفنون الأدب العربى ، من غير أن تفوتها الدقة والعمق فى البحث والدراسة . ونحن نبدأ بمديح الملوك والخلفاء لأنه أكثر الشعر كمية وعدداً فى ديوان العرب ، ثم نتبعه بمديح الأمراء والوزراء والعلماء والأدباء ، وننتقل بعده إلى المديح الدينى فالسياسى ، حتى نصل إلى نهاية المطاف . وهمنا أن نثير المشاكل ونكثر من الافتراض وطرح الأسئلة ، لعل شبابنا يتساءلون فى كل ما يقرءون عن الأسباب والدوافع والنتائج . فتكون قراءاتهم نافعة عميقة مفيدة لذيذة .

الفصل الأول

مديح الملوك والخلفاء

أعجب الشاعر العربى بالخلق الحميد والرأى السديد والشجاعة الفائقة والكرم الواسع ، كما أعجب بها غيره من شعراء الأمم القديمة والحديثة ممن قرأنا أمرهم فى التمهيد ؛ لذلك أثنى على الرجال المتفوقين والشجعان المشهورين والقواد العظماء والرؤساء المسوّدين ، وامتدح المثل العليا التى رآها عندهم ، ولكنه نظر إلى الملوك ومن يليهم منذ فجر الجاهلية نظرة إكبار واحترام لما بين عيشه وعيشهم من بون شاسع وفرق واسع ، ولما بين بيته الصغير وقصور أولئك من مدى يبهر الطرف ويسحر اللب ؛ وقد رأى بأم عينه ما بين حياته الفقيرة وحياة الملوك من اختلاف أخذ بمجامع قلبه وحرّك لسانه بالإعجاب . ولعل العربى تأثر أول الأمر بنظرة الفرس والروم إلى ملوكهم ، فقد كانت الأمتان تضعان الحواجز والسدود والحراس والجنود دون البلوغ إلى قصور الملوك والأمراء ، وكان اللخميون فى العراق والغساسنة فى الشام يتأثرون ما وسعهم هاتين الأمتين بالمظاهر والمفاخر ، ويقلدون مراسمهم وأعيادهم تقليداً يثير إعجاب القادم من الصحراء ، ويسيل لعابه ويضطره إلى الحديث والفخر والمدح . ونسارع إلى القول بأن الإسلام سعى إلى محو هذه النظرة ، فقام الخلفاء الراشدون بالملك الزاهد والحكم الديمقراطى ، وقلدهم بعض الخلفاء ، لكنّ أكثرهم عاد إلى النظرة القديمة المتأصلة فنافس الفرس والروم ، وبذهم فى بعض الأحيان بالمظاهر والمراسم ، كما أحيا النظرة القبلية فى السياسة والوراثة والحكم ؛ وقال الشعراء المداحون فى الإشادة بهذا كله فرسموا ما كان عليه هؤلاء الخلفاء والملوك منذ الجاهلية حتى العصر الحاضر .

فنى الجاهلية قام النابغة الذبيانى بزيارة الملوك فى الشام والعراق ، فرأى صور الأبهة والترف والفخامة التى كان يعيش عليها هؤلاء الملوك ، وعاد بصور

تعبر عن حبه لهذه الربوع واحترامه لسادتها ، فإنهم ملوك ولكنهم مع ذلك إخوان كرماء يحكمون العربي الشقيق الضيف فى أموالهم ، ويقربونه فى ضيافتهم فيشعر أنه ربّ المنزل وأنه انتقل من أهل إلى أهل على ما بين الحجاز والشام من فرق واختلاف .

ولقد دهش النابغة لما رأى فتخيل أن البناء هناك من صنع الجنّ ، فعيناه لم تشهدا قبل « تدمر » أعمدة صاعدة إلى السماء وعمارة شامخة إلى العلاء كما شهدتا خلال الزيارة ، لذلك رأى للنعمان فضلا على الناس كلهم ، وجعل له الطاعة والحب ، واعترف بأنه يهب المائة الأبكار ، فلما أراد أن يصف جوده امتدحه بأنه أشد من سيل الفرات حين تمده الأودية فيزمجر ويخيف :

فما الفُراتُ إذا هَبَّ الرياحُ له ... تَرْمى غَوَاربُه العبرَيْن بالزَّبَد[1]

يمدُّهُ كلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لجبٍ ... فيه ركامٌ من اليَنبُوت والخضدِ[2]

يظلُّ مِنْ خوفِهِ المَلّاحُ مُعْتَصِماً ... بالخيزرانة بَعْدَ الأَيْنِ والنجدِ[3]

يوماً بأَجْوَدَ مِنْهُ سَيْبَ نافلةٍ ... ولا يحولُ عَطَاءُ اليَوْمِ دونَ غَدِ[4]

فأنت ترى هذه الصورة الجليلة التى صنعها النابغة ليرسم كرم النعمان إذ رسم الفرات فى أكمل ما يكون امتلاء ، فإذا عصفت به الرياح هاجت أمواجه وزادتها هيجاناً بما يترامى إليها من ركام الشجر حتى ليخاف الملاح الماهر ، فلا يستطيع تسيير سفينته إلا بحذر بالغ ، فيعتصم بذنب السفينة ويلقى فى سبيل ذلك عناء وعنتاً قويين . وكل هذا ليقول إن جود النعمان كالنهر بل هو

(١) الغوارب : الأعالى من الماء والأمواج .

(٢) الركام : الحطام المتكاثف — الينبوت : شجر الخشخاش ، وما تخضد : أى تكسر من الأشجار — يمد ماؤه : أى يعلو .

(٣) الخيزرانة : ذنب السفينة — الأين : الفتور والإعياء — النجد : العرق والكرب .

(٤) النافلة : الزيادة فى العطاء — يحول : يمنع .

أشد من نهر الفرات وأقرب إلى البحر فى هديره وأمواجه وعنفه وقوته . وهذه الصورة الشعرية تقلب عليها الشعراء فى المديح ورسم الكرم والجود والعطاء، فبعضهم قلدها ، وبعض أضاف إليها ، فلم يخرج كثير منهم عن تشبيه الكرم بالبحر والجود بالموج المزبد .

وقد طلع علينا النابغة بصور كثيرة للمديح ، فاتخذ سبيله إلى تشبيه مليكه بالليل الذى يدركه أنى كان ، وشبهه بالربيع المنعش كذلك :

وَأَنْتَ رَبِيعٌ ينعش النَّاسَ سيبُهُ   وَسَيْفٌ أُعيرتْهُ المنية قاطعُ
أَبَى اللهُ إِلَّا عـــدله ووفاءَهُ   فَلَا النكْرُ معروفٌ ولا الْعرْفُ ضَائِعُ[1]

فالنعمان ربيع يقبل بالجمال والزهر والنور والبركة والثمر ، فهو خير كله وهو مع ذلك مخيف لأعدائه كسيف قاطع أعارته المنية حدها الباتر . والشاعر يقول بأن العرف لا يضيع بين الله والناس .

واستعار النابغة صورة أخرى لمديح مليكه ، فشبهه بالشمس بين الكواكب لمكانه بين الملوك وارتفاع قدره على أقدارهم فقال :

أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَاكَ سورَةً   تَرَى كُلَّ ملك دونها يَتَذَبْذَبُ[2]
بِأَنَّك شَمْسٌ والملوكُ كواكبٌ   إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ

وهكذا سن النابغة للشعراء سنن المديح الرسمى حين يتطلعون إلى الملوك ، فقال فى مليكه إنه بحر طامى الجود ، وإنه ليل يبسط رداءه على الوجود ، وإنه شمس بين الكواكب ، وإنه ربيع ينعش النفوس كما ينعش المطر الأرض الظمآى، وإنه سيف بتار مهيب. ولذلك قال النقاد إنه أول الاحتراف فى المديح . ورأى فيه بعضهم صحافيًّا لعصره يعير قلمه لكل من يجود عليه أو يحمى حماه ،

---

(١) النكر : المنكر — العرف : المعروف .

(٢) سورة : منزلة [illegible] وى : صورة — يتذبذب : يضطرب .

أو يظله بجناحه ، فيرفع من قدره بمديحه ويصوره فى احترام وحب وخوف وفخامة ؛ ويجعله فوق الناس وأعلى الملوك . وبذلك يختلف عن زملائه الجاهليين كامرئ القيس والمهلهل وغيرهما حين قالوا المديح عن حبّ عميق وشعور صادق واعتراف بالواقع ، فلم يتملقوا ولم يتزلفوا لأنهم لم يتكسبوا بشعرهم ولم يحترفوا بمديحهم . وقد لاحظ المستشرقون أنه خلق فى الأدب العربى ما يسمى بأدب الملوك أو الشعر الأرستقراطى ، لأنه يحيط الملوك وحدهم بالدعاية والرعاية ، وينسى الشعب وعامة الناس من الذكر والعناية ، فلا يعيرهم مكاناً من المديح ولا يلفت النظر إلى أعمالهم ، فكأن الدنيا تعيش لهم وبهم ؛ أو كأنهم يملكون كل شيء فى الأمة لا يذكر إلى جانبهم أحد ، وهم السادة وغيرهم العبيد ؛ ويبدو أن هذه النظرة قد تبدلت قليلا خلال عصورنا الأدبية ، فاتخذ الشعراء من رعاية الخلفاء والملوك لشعوبهم وقبائلهم موضعاً للمديح والإطراء ، أو خيل إليهم أن ذلك قد وقع فاستحقوا المديح .

والأعشى سار على سنن النابغة فى المديح ، ولكنه انحط إلى درك المسألة والتكسب المشين ، فمدح كل من أعطى ، وشكر كل من أكرم ؛ فقال يمدح الأسود بن المنذر اللخمى ، وهو من إخوة النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فرأى فيه الحزم والحذر وصلة الرحم والشجاعة والقوة فقال فيه :

عِنْدَهُ الحزمُ والتّقى وأسا الصّر ... ع ، وحملٌ لمضلع الأثقَالِ[1]

وصلاتُ الأرحام قد علم النا ... س وفك الأسرى من الأغلالِ

وهوانُ النّفْس العزيزة للذك ... ر إذا ما التقَتْ صدور العوالى

وعطاءٌ إذا سألت إذا العذ ... رة كانت عطيّة البخّالِ[2]

(١) التق : الحذر — أسا الجرح : داواه — الصرع : داء يبطل الحس ويمنع الحركة ، وهو التيه والكبر .

(٢) العذرة : المعذرة .

ووفاءٌ إذا أجرت فما غرّ ت حبالٌ وصلتها بحبال(١)

أرْيَحِيٌّ صلتٌ يظلُّ له القوْ مُ ركودًا قيامهم للهلال(٢)

فالممدوح يجمع بين الصفات المثلى التى يحبها العربى ، يصل الرحم ويفك الأسير العانى ،ويهين نفسه فى سبيل المجد وطيب الذكر إذا تصاولت الرماح وعلا الغبار ، ويجير إذا انقطع الحبل بالفقير المستغيث ؛ وهو قوى يسكن له الناس كأنهم ينظرون إلى الهلال . فالأعشى ذكر الشجاعة والكرم فى مدحه للأسود وأطال فى مدحه وفصّل حتى أدان له الرقاب ، وجعله يغزو كل عام ، ويصل الخيل بالخيل ، ويتدفق على حومة الوغى ، ويسقى الكتائب من كأس هجومه ويجير المستجير : فهو فى هجماته يذهل الشيخ عن بنيه ، ويشرد الإبل فتوغل فى الرمال ويملك النواصى فى القتال ، ويواصل الحرب شتاء وربيعاً ، فيبعث الذل فى الأعداء ، ويعيد المجد إلى الأصدقاء ، ويحمل لواء الظفر والنصر.

ومدح حسان بن ثابت ملوك الغساسنة وأمراءهم ، ووصف نعيمهم وترفهم ، ورسم ما كانوا يلبسون ويرتدون ، وذكر ديارهم العامرة بالكرم والجمال ، فقال فيهم :

يَمْشُونَ فى الحُلَلِ المضَاعَفِ نسجُها مَشْىَ الجمال إلى الجمال البُزَّلِ(٣)

أولاد «جَفْنَة» عِنْدَ قَبْرِ أبيهمُ قبرِ ابن ماريةَ الكريم المُفْضِلِ(٤)

يُغْشَوْن حتّى ما تهرُّ كلابهم لا يسألون عن السَّواد المُقْبلِ(٥)

يَسْقُون مَنْ وَرَدَ البريصَ عليهم «بَرَدَى» يصفّقُ بالرَّحيق السَّلْسَلِ(٦)

(١) حبل غرر : غير موثوق به .
(٢) الأريحية : الارتياح لفعل الندى والجود — صلت : ماض — ركود : لا يتحركون .
(٣) الحلل : ح حلة وهى الرداء — البزل : ج بازل وهو البعير إذا استكمل الثامنة وطعن فى التاسعة .
(٤) جفنة : أبو ملوك غسان فى الشام .
(٥) يغشون : لا تخلو منازلهم من الأضياف .
(٦) البريص : نهر بدمشق ، وبردى نهر آخر فيها — يصفق : يمزج — الرحيق : الخمر البيضاء — السلسل : اللينة .

فهم يمشون فى ثياب مضاعفة النسج ، وهم آمنون لا يبرحون ولا يخافون كما تخاف العرب ، لا ينتجعون ولا يتخففون إلى مكان آخر ، ومنازلهم مفتوحة للأضياف والطراق والعفاة حتى لتأنس كلابهم بالقصاد فلا تهرّ على أحد ، لا يسألون مَنْ يقبل عليهم أو يؤم ديارهم ، فهم فى خفض من العيش يستضيفون كل من يمرّ بساحتهم . ومثله الحطيئة ، فقد مدح عمر بن الخطاب طمعاً فى عدالته ورجاء بقضاء حاجة يطلبها ، فرأى فيه أمين الخليفة بعد الرسول وأوفى قريش جميعاً وأطولهم فى الندى بسطة ، وأفضلهم فعالاً .

وأما الأخطل ، فقد كان شاعر الخلفاء ، وشاعر بنى أمية كلها ، مدحهم واستدرّ جودهم وعطفهم وحبهم ، وكان يبدأ مديحه بالأسلوب القديم على عادة أقرانه ، ثم ينتقل منه إلى الممدوح فيقول فى الخليفة عبد الملك بن مروان :

الخائضُ الغَمْرَ والميمونُ طائرُهُ   خليفةُ الله يُسْتَسْقَى به المَطَرُ[1]

وَمَا الفُراتُ إذا جَاشتْ حوالبُهُ   فى حافتَيْهِ وفى أوْسَاطِهِ العُشَرُ

ودَغْدَغتْهُ رياحُ الصَّيْفِ واضطربتْ   فوق الجآجئِ من آذيّهِ غُدُرُ[2]

مُسْحَنْفِرٌ من جبال الرُّوم يسترُهُ   منها أكافيف فيها دونه زَوَرُ[3]

يَوْماً بأَجْوَدَ مِنْهُ حين تسألُهُ   ولا بأَجْهَرَ منه حين يَجْتَهِرُ[4]

فالخليفة شجاع يخوض الحرب ، ميمون النقيبة ؛ وهو فى كرمه أشد سعة من الفرات إذا جاشت أمواجه واصطفقت أواذيه ، وسقط منحدراً من جبال الروم فى سرعة وهول . وهذه الصورة تذكرنا بما قال النابغة فى الفرات حين

---

(١) الغمر : الماء الكثير .

(٢) دغدغته : فرقته — آذى : موج — جآجئ : صدور — غدر : ج غدير .

(٣) المسحنفر : السريع الجرى — أكافيف : مناكب — زور : ميل .

(٤) الجهير : الرجل الرائع الجسيم .

وصف الجود عند مليكه . ويسير الأخطل بعد هذا فى وصف الشجاعة والكر فشبهه بالليث يتقدم مائتى ألف من الجنود ، لا يشبههم إنس ولا جان ، فيغش الوغى بنفس لا تهاب ، ويهدم الأسوار والقناطر ، فلا تقفه حدود ولا سدود لأنه من قريش وقريش سادة العرب فى الذروة من الخلق الكريم والجود الواسع والبطو النادرة . وهو حين مدح يزيد بن معاوية والوليد قال فيهما مثل ما قال ف عبد الملك ، فهو خليفة يستسقى بسنته الغيث ، شديد الهيبة ، عظيم البأس أسقاه على ظمأ ولم يحرم سائله ، فياض العطاء .

والفرزدق مدح خلفاء بنى أمية ، ورأى قوتهم فى الخلافة ، وأعجب بشجاعتهم فهم أبطال منصورون وكرماء مشهورون ، فقال فى هشام بن عبدالملك يرجو الندى على يديه :

جَزَى اللهُ خَيْرًا من خليفَةِ أُمَّة إذا الرِّيحُ هَبَّتْ بعدنَوْءٍ جنوبُها[1]
فَهَبْ لِىَ سَجْلًا من سجالك يُروِنى وأهْلِى إذا الأَوراد طال لؤوبها[2]
وكم أَنْعَمَتْ كفًّا هشام على امرئٍ له نعمة خضراءُ ما يستثيبها

فهو يلتمس دلواً من دلاء ممدوحه ، وخيراً من خيراته ينعم بها مع الأهل إذا أجدبت الأرض وقل الرزق . وكم لهشام من نعم خضراء على الناس ، وبذلك يبين الشاعر عن حاجته إلى العطاء وموضعه من الاستجداء ، ويشكر للمنعم ماله وأياديه ، يستعطفه ليعطى ويثنى عليه لكرمه . والشاعر يصف الوليد بن عبد الملك بالبدر ويجعل أمه الشمس ، ويمتدح انتسابه إلى لؤى بن غالب ، فيقول :

تَصعَّدَ جدّ بالوليد إلى التى أرى كلّ جَدّ دَونَها يتَصَوَّبُ

(١) النوء : إذا ناء النجم ، فلم يكن فى نوئه إلا الريح ولم يكن فيه مطر .
(٢) السجل : الدلو — الأوراد : ج ورد ، وهى الإبل ترد الماء — اللؤوب : العطش .

أرى الثقلين الجنَّ والإنس أصبحا   بمدّان أعناقاً إليك تقرّبُ
وما منهما إلا يرجّى كرامة   بكفيك أو يخشى العقابَ فيهربُ
وما دون كفَّيك انتهاءٌ لراغب   ولا لِمُنَاهُ مِنْ ورائك مذهبُ

فالجن والإنس تمدّ أعناقاً إلى الوليد رجاء الخير والتماس الندى ؛ فكفاه لا يحيد عنهما راغب ولا يذهب عن الطلب منهما ذاهب ، وهذا كرم مستفيض يظهره الشاعر ويشهره . والنقاد يذهبون إلى أن مديح الفرزدق لم يكن عن إخلاص وحب ، وإنما كان تقليداً وواجباً ، يخلطه بالتفاخر والاعتزاز والتعاظم ، ويكسوه بالسؤال وطلب العطاء ، فقد هجا هشاماً ثم مدحه حين أصبح خليفة المسلمين .

وجرير مدح عبد الملك بن مروان ، فاستجدى واستندى وتكسب كذلك فجعل الكرم أهم صفات الممدوح ، وقدّم بين يدى ذلك غزلاً ونسيباً أو وصفاً على عادة القدماء ، فقال فيه :

أغِثْنى يا فِدَاك أبى وأمّى   بسَيْب منك إنَّك ذو ارتياحِ[1]
فإنى قد رأيتُ علىّ حقًّا   زيارتى الخليفةَ وامتداحى
سأشكرُ أن رددتَ علىّ ريشى   وأنْبَتَّ القوادمَ فى جناحى
ألَسْتُمْ خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راحِ ؟

فهو يطلب إليه الغوث والكرم والسيب ، ويرجو أن يكسو عريه وأن يثبت قوادمه ، فهو كالطير إن لم ينجده لم يطر بين العالمين بذكر أو بشعر ، وانتهى إلى أن بنى أمية خير العالم وأنهم أندى الأقوام بطون راح ، وهذه الصورة أعجبت النقاد وأطربتهم ، فرأوا فيها أجمل الصور وأبدع التعابير فى هذا الباب ، فكان البيت أطيب ما عرف العرب فى المدح ، لأنه رفع ممدوحيه فوق العالم

---

(١) الارتياح : التحرك للعطاء والمشاشة له .

وجعلهم أحسن الناس . وشاعرنا مدح هشاماً بمثل هذا ، وطلب منه المال لينقذه من همومه فقال :

تَعَرَّضتِ الهمومُ لنا فقالتْ   جعادة أىّ مُرْتَحَل تُريدُ
فَقُلْتُ لها الخليفة غير شكٍّ   هو المهدىّ والحكم الرشيدُ
وتبدأ منكم نعمٌ علينا   وإنْ عُدْنا فمنعمكم مُعيدُ
تزيدون الحيـــاة إلىّ حبًّا   وذكر من حبائكم حميدُ
لو انَّ الله فضَّل سَعْى قَوْم   صَفَتْ لكم الخلافةُ والعُهودُ

أرأيت إلى الحاجة كيف تسوق الشعراء إلى أبواب الخلفاء ، لعلهم ينالون من نعمهم ، فإذا بلغوا وطرهم زادت الحياة إليهم حبًّا ، وفرحوا بالنوال فأشادوا بالخلافة وجدّدوا لها عهود الحب والوفاء ، فإذا رأيت مديحاً فاعرف أن وراءه يداً أسداها الخليفة إلى الشاعر ، أنقذه من بؤسه أو خلصه من حبسه أو أقطعه إقطاعاً ، فحبب إليه الدنيا وحرّك لسانه بالثناء والشكر .

وهكذا نرى أن العصر الأموىّ كان كالعصر الجاهلى فى المديح ، أشاد بالكرم عند الخلفاء وأثنى على الشجاعة ، وسعى إلى المال ، وتكسب لينال ، ويحظى بالجوائز والعطايا .

٢

فإذا انتقلنا إلى العصر العباسى رأينا الشعراء يمتدحون ويتكسبون كذلك بشعرهم يرجون النوال والعطاء . ولكنهم زادوا فى معانى هذا المديح وصوره ، ما يتلاءم مع الحضارة العباسية والحياة الاجتماعية الجديدة ومواسم الخلافة والملك وأعياد البلاط ومناسبات الحرب والسلم ، وأضفوا على المعانى القديمة صوراً براقة

تصف هؤلاء الخلفاء بما يتناسب وحاجة الملك الجديد ، فالخليفة على كرمه وشجاعته وبأسه وقوته وإشراق جماله وصورته ، يجب أن يكون نظيف الأعضاء جميل الملابس ينثر الطيب والعطور بين يديه ، يصلح الفاسد ، ويمنع الفاحشة ويأمر بالعدل والإحسان ، ويتعلق بالدين ، ويبتعد عن الرشوة وبيت المال ، ويقف من الشعب موقف العادل الأمين يجمعهم على حبه والإخلاص له ، ويقوم بسداد أمورهم فيدفع عن ثغورهم الأعداء ، ويبسط الأمن فى البلاد ، وذلك لأن مستلزمات الحكم كانت تستوجب هذا ، كما نقول اليوم بلغتنا العصرية .

فبشار بن برد يمتدح المهدىّ فيرى أنه فتى قريش فى مكارمه وتدينه :

فَتَى قُرَيْشٍ دِيناً ومكرمة ... وَهَبْتُ وُدِّى لَهُ بِمَا وَهَبَا
أَعْطى من الصّمت والولائد وال ... عبدان حتى حسبته لَعِبَا
يزيّن المنبر الأشم بعط ... فَيْهِ وأقواله إذا خطبا
وتشرق الأرض من محاسنه ... كأنّ نوراً فى الشمس مجتلبا

وهكذا ترى أن الشاعر يذكر الدين والتقى وقوة الخطابة وإشراق الجمال فكأنه يتغزل بمحاسنه وحديثه ، فيزين حبه للناس ويجمعهم حوله ، وبذلك يشترك مع العصر فى استحسان هذه الصفات الجديدة عند الممدوح ، فهى صفات تتطلبها الحضارة العباسية كما قلنا ، ويقول فى مكان آخر يمدح المهدى :

إذا غدا المهدىّ فى جنده ... أَوْ رَاح فى آل الرسول الغِضابْ
بدا لك المَعْرُوف فى وَجْهِهِ ... كالظَّلْم يجرى فى ثنايا الكعابْ[1]
لا كالفتى المهدىِّ فى رهطِهِ ... ذو شيبة كهل ولا ذو شبابْ

---

(١) الظلم بالفتح : بريق الأسنان .

فالمعروف يلتمع فى وجه المهدى كما يلتمع الثغر فى الكعاب ، وهو يفوق الشباب فى جماله وبهائه . وهذا مديح جديد يصف إشراق الفضل فى وجه الممدوح ، يعطى وهو راض ويمنح وهو مبتسم ، فيضحك الخير فى قسماته وتبدو بشائر الجود والندى على محياه . ويزيد بشار أن الخليفة يكره الفحش ويضرب أعناق الرجال وهو حليم مظفر كريم ، شهم وقور ، ونعلاه تشمهما فى الندى لشدة نظافتهما ، وأعضاؤه تثير الطيب لشدة طهارتها ، فكأنه الريحان فى أنوف الندامى ، وهو ملك تسجد له الملوك يرعى حقوق العرب . ويلح الشاعر على هذه الصورة التى رسمها للممدوح يضحك للندى فيقول :

لَمَّا رآنى بَدَتْ مَكَارِمُهُ   نوراً على وَجْهِهِ وَمَا اكْتَأَبا

كأنَّما جئتُه أبشِّرُهُ   ولم أجئْ راغباً ومختلبا

والكريم من يضحك حين يعطى ، فكأنك تعطيه الذى أنت سائله ، وتبشره بالربح كأنك لا تسلب منه ولا تكتسب من ماله . ويبالغ بشار فى مديح الخليفة حتى ليرى عليه سماء النبوة ، ويقرر أن عنده حجيج القلوب تؤمه لترى الخير والنور والبركة . والأمن على ذلك مستتب فى جميع الربوع والأصقاع ، يسدّ الثغور بخيل الله ملجمة ، ويصلح الفاسد ويداوى الصدور ، فتخضع له العرب والعجم لقوته وكرمه ، فهو يحيى البلاد بعد موتها ويخرج فيها النور بعد ظلمتها ، لذلك يدعو له بالبقاء وطول العمر ، لعل الله يجعل للبلاد الإسلامية على يديه النصر والفوز والعمران .

ولعل بشاراً من أوائل الشعراء الذين نقلوا مديح الملوك من ميدان الكرم والشجاعة إلى ميادين جديدة ، فيها حب الرعية والإخلاص للشعب والخير للبلاد حين تلفت العباسيون إلى هذه المعانى فاتخذها الشعراء ديدناً وألحوا على ذكرها . ومثله أبو نواس فى ذلك إذ سمى الرشيد « أبا الأمناء » ورأى أن سياسته خير سياسة ، فقد نزع التحاسد بين الناس وألف بين قلوبهم ، وجمع شتات آرائهم ، فقال :

هَارُونُ أَلَّفنا ائتلاف مودّة ماتتْ لَهَا الأَحْقَادُ والأَضْغَانُ

مَلِكٌ تَصَوَّر فى القلوب مثالُهُ فكأنَّما لم يخل منه مكانُ

أَلِفَتْ منادمةَ الدّماءِ سُيُوفهُ فلقلّما تحتازها الأَجْفَانُ

ومن لك بملك يجمع الشعب على مودة، ويقتل الأحقاد والأضغان، فتحبه القلوب وتجعل له فى كل حنية من حناياها مكاناً؛ وهو لشجاعته تنادم الدماء سيوفه فقلما تختبئ فى أجفانها، وإنما هى مشهورة على العدو، مسلولة على الظالم الباغى. وقد بالغ أبو نواس كما بالغ بشار من قبل فمدح الأمين وجعله خير الناس جميعاً لم يستثن منهم أحداً فقال:

وَإذا المطىُّ بنا بَلَغْنَ «مُحَمَّدًا» فظهو رهُنَّ على الرِّجَالِ حَرَامُ

قَرَّبْنَنا مِنْ خير مَنْ وطئَ الحصى فلها عَلَيْنا حرمة وَذِمَامُ

مَلِكٌ إذا عَلِقَتْ يداك بِحَبْلِهِ لا يقتضيك البُؤْسُ والإعْدَامُ

ولكننا نلمح فى هذا المديح استجداء وحاجة وطلباً للمال يدعو إلى هذا القول والمبالغة فيه، حتى يجعل الأمين خير من يمشى على قدم مما خلق الله من إنس ومن جان؛ وهذه صورة أعجبت القدماء كذلك فجعلوها مثلا يحتذى وقولاً يتردد فى كتب النقد والبلاغة.

ومدح مسلم بن الوليد خليفة المسلمين هارون الرشيد فرأى فيه جامعاً للقلوب على المودة والإخاء ودفن الأحقاد والضغائن، كما رأى بشار من قبل سواء بسواء فقال فيه:

إذَا اخْتَلَفَتْ أَهْوَاءُ قومٍ جَمَعْتَهُمْ على العَفْوِ أَو حَدّ الحُسَام المهَنَّدِ

فهو يجمع الحلم إلى القوة، والكرم إلى البطش، وهو حين نظر إلى الأمين رأى فيه خليفة يجدّد عهد أبيه فى البأس والشدة:

خليفَةُ اللهِ قد ذلت بطاعتِهِ صعر الخُدُودِ برَغْمٍ مِنْ مَرَاقيها
أحْيَتْ يداه النّدى والجود فانتشرا في الأَرض طرًّا وجالا في نواحيها
كم من يَدٍ لأَمين الله لو شكرتْ لقصّر النفس عن أدنى أدانيها

فالخليفة يذل العصاة وصعر الخدود ، ويحيي بيديه الندى والجود فيعم بهما الأرض وتنتشر مكارمه فى الدنيا ، وتقصر النفس عن شكر آلائه ونعمه ، فراحتاه تهينان المال ، وبيته فى علياء مكرمة يقصر النجم عن أدنى مراقيها ، وهو لو حسبت عطاياه وعدت فضائله لقل الحساب وفشل الذى يحصى ، ذلك لأن الرجل أثبت دعائم الملك ، وأهلك الأعداء ، وقسم بينهم حظوظ المنايا ، ودفن الثورات والفتن بعد أن ثارت نارها وشب أوارها . فصريع الغوانى يمجد البطولة والشجاعة والحكمة فى أسلوب الحكم ؛ ويمتدح يد الخليفة فى إشاعة الأمن ورخاء الشعب فى زمن يهدد بالفوضى والشغب فى أرجاء العالم الإسلامى .

وأبو العتاهية كزميله يمتدح الرشيد للأسباب عينها ، ويرى فيه سيفاً مصلتاً على الرءوس الثائرة ، وحامياً للإسلام وناصراً للدين :

إذا نُكِبَ الإسلامُ يَوْماً بنَكْبَةٍ فَهَارُون من بين البريّة ناصِرُهْ

ولذلك يرى أن القدر ساقه إلى المسلمين فجعله خليفتهم :

أتَتْهُ الخِلافَةُ مُنْقَادَةً إليه تجرّرُ أذْيَالَها
فَلَمْ تَكُ تَصْلُح إلا لَهُ ولم يَكُ يَصْلُح إلا لها

فلا تصلح إلاّ له ، وقد سعت منقادة إليه تجر الذيل ، وقد شمست عن غيره وتأبت على سواه . وظاهر أن الشعراء أحسوا بالحاجة إلى خليفة قوى فامتدحوا فيه هذه الصفات أو سعوا إلى نشدانها عنده ، أو حثوه إلى أن يكون فى هذا الموقع الرصين حيال الفتن الداخلية والحروب الخارجية ، والعدو يتربص بالمسلمين الدوائر ، ويتجمع على الحدود المتاخمة ينتظر ثغرة فى الثغور ليهجم منها ، فيحطم

الأسوار ويخذل الجيوش . ولذلك وقف أبو تمام أكثر مديحه على هذه المعانى ، فرأى فى المعتصم مفتاح النصر والظفر ، وسماه المعتصم المنتقم والمرتغب فى الله المرتقب ، وقال إنه لم يغز قوماً إلا تقدم الرعب جيشه ، ولم يرسل جحفلاً إلاّ كتبت له العزة والكرامة ، فأبطل عمود الشرك واستحق شكر الدين :

خَليفَةَ الله جَازى اللهُ سَعْيَكَ عَنْ جرثومةِ الدّين والإسلام والحَسَبِ

بَصرتَ بالرّاحة الكُبْرى فَلَمْ تَرَها تُنالُ إلا عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

وطبعى أن نرى فى مديح الخلفاء صفاتهم الخاصة من كرم وندى وشجاعة وبأس ، مقرونة بحفاظهم على بيضة الدين وحوزة الإسلام ، وما ينال ذلك إلاّ بالتعب والسعى ، والجهاد والقتال ، فهو مدح يقترن بالحماسة والحث على الحروب ، وقمع الفتن والسير بالناس سيرة الرأفة والسكينة والوقار ؛ وديوان أبى تمام يغص بالمديح فى هذا الباب يشيد بالفتوح والانتصارات وأساليب الحكم العادلة ، قد خصّ بها المعتصم والواثق والمأمون ، فكأنه مدّاح العصور العربية كلها ، وشاعر الخلفاء العباسيين ، فى حسن ديباجة وجمال صيغة وأسلوب ، سالت فى الديوان كل مسيل .

والبحترى سار سيرة أستاذه فانبرى للمعتز بالله ووصفه بالتقوى والورع ونصرة الإسلام ، فهو من عليا قريش تناصرت مآثره فى فخرهم وله فيهم منصب مكين ومكان رصين ، فقد لبس المسلمون فى عهده من نعم المعتز برُداً تزيد على السحائب فى الرياض ، لأنه أخو حزم ساس الأمور ودفع النوائب واعتصم بالعزم والهدى ، فعمت البرية مناقبه ، وسار فى الناس عدله :

فَمَا زِلْتَ حتّى أَذْعَنَ الشَّرْقُ عنوةً ودانتْ عَلَى صغر أعالى المَغَارِبِ

جُيُوشٌ مَلأْنَ الأَرْضَ حتى تَرَكْنَهَا وما فى أقاصيها مَفَرٌّ لهاربِ

ولسنا نعجب بهذا المديح ، فالخليفة يبسط ظلال الأمن فى مشارق العالم

الإسلامى مغاربه ، وهو يضطلع لهذا العبء السياسى على خير ما يرجو المسلمون ، لذلك جعل الشعراء مدحهم أوفى لسيرورة ذكره وبسط اسمه فى العالمين ، فهو يقول فى المهتدى :

إمامٌ إذَا أمْضَى الأُمُورَ تتابَعَتْ ... على سَنَنٍ من قَصْدِهَا وسَدَادِها

تَشَوَّفَ أهلُ الغَرْبِ فارم بعزمةٍ ... إلى إرَمٍ إذ ما نَعَتْ وعِمَادِها

لتسكنَ ضَوْضَاءُ العريش وتَنْتَهِى ... فلسطون عن عِصْيَانها وعِنَادِها

وهكذا رسم للمهتدى حدود مملكته ووارف عدله فيها ، وذكر أياديه عليها ، فهى تنام مطمئنة حين يسهر الخليفة على رعايتها وحفاظها . والبحترى لا يقف عند هذا فى مديحه لأعمال الخلفاء ، وإنما يتطرق إلى ذكر صفاتهم الخاصة ، فيشيد ببلاغتهم وفصاحتهم كما أشاد بشار وأبو نواس من قبل ، فقال فى المعتمد على الله :

وإذا تكلَّم فاسْتَمِعْ مِنْ خُطْبَةٍ ... تَجْلُو عَمَى المُتَحَيِّرِ المرتَادِ

أفضى إليه المسلمون فَصَادفوا ... أدنى البرية من تقى وسَدَادِ

فالخليفة خطيب بارع وفصيح متكلم ، يجمع بين برديه ذلاقة اللسان وقوة البيان وطهارة النفس وسداد الفكر ، إلى عدالة يبسطها فى الرعية وأمن يعمه فى الأمصار ، فأحيا صفات المديح فى الجاهلية والإسلام وأضاف إليها مديح العباسيين وما يستحسنونه من خلفائهم وقد اتسعت رقعة الملك وفاضت المشاكل وكثرت الحروب ، ويعترف البحترى بأنه ينظر إلى المثل العليا عند الأجداد يحييها الخليفة ويكمل بها سيرة الآباء ، فيقول فى المتوكل على الله :

أَحيا الخَلِيفَةُ «جعفر» بفَعَاله ... أَفْعَالَ آباءٍ له وجُدُودِ

ولا بد لنا من القول هنا إننا حين نستعرض صور المديح نلمح رسوم المعارك

والغزوات وقد احتدمت الحروب ، واهتزت الأرض ومالت بثقلها ، فإذا طلع وجه الخليفة انجلت السحب وانقشع الجو ، وذكر المحاربون بطلعة أمير المؤمنين طلعة النبي فى غزواته فهللوا وكبروا إجلالاً وتوقيراً ، والخليفة على ذلك متواضع خاشع لا يزهى ولا يتكبر :

وَمَشَيْتَ مِشْيَةَ خَاشِعٍ مُتَوَاضِعٍ ... لِلهِ لاَ يَزْهُو ولاَ يَتَكَبَّرُ
فلو انَّ مُشْتَاقاً تَكَلَّفَ فوق مَا ... فى وسْعِهِ لمشى إليك المنبرُ

٣

وذلك يدعونا إلى التفكير بهذا المديح يرسله الشعراء العباسيون فيضفون عليه طابع الحماسة والدين والسياسة إلى المديح الخالص الذى يرسم صفات الخلفاء ومزاياهم ، فهم لا يستطيعون أن يفصلوا بينها فى ذلك العهد لأنها مما يرفع شأن الحكام ويعلى مقامهم فى أعين الشعوب ، فلم يقصدوا إلى السياسة قصداً أو إلى الدين عمداً ، ولكنهم جعلوها من حسنات الخليفة وأياديه ، فأضافوا إلى المديح الأموى نظرة واسعة إلى أعمال الخلفاء لم تكن من قبل ، ساق إليها ظرف جديد ومحيط جديد ، يجب فيه على الحكام أن يلتفتوا إلى حال الشعوب ؛ يدفعون عنهم البؤس والنحس والفوضى والفتن ، ويقفون فيه على الأمن والرخاء والعدل والنصر ، وبدونه لا يقع الخليفة من نفس المسلمين موقعاً حسناً . والشعراء أحسوا بهذا فأشركوه بمديحهم وأدخلوه فى معانيهم ، ليدخلوا فى أذهان الناس أنّ الخليفة على صفاته الخلقية الشخصية ، يعنى بالمسلمين فى كل ما يلم بأمورهم ، وذلك كما يفعل أرباب الصحافة الحزبية لعصرنا ، يعلنون الخير ويلمحون به ، ويجمعون للزعماء صفات العدل والنظر إلى أمور الرعية ، فتصدّق الرعية ما يقال وتسير

وراء هؤلاء السادة القادة، وذلك أدركه شعراء بنى العباس منذ ألف عام، فكسبوا للخلفاء نصر الجماهير وجمعوهم على حبهم ، بأساليب مختلفة من البيان يوطئون بها أكناف المديح فيستعملون الصور والمعانى التى تطرب الشعب وترقص خياله ، فيقع لهم ما يريدون من مديحهم سواء أكانوا صادقين أم دعاة متحزبين ، فالبيان كالسيف يبنى ويهدم ويضع ويرفع ، وكثيراً ما يصنع المال فى كسب البيان ويكون المديح .

ونحن حين نقول ذلك إنما نمهد به لعهد جديد ، تقسمت فيه الممالك وكثر الملوك ، فأصبح الحكام يشترون المديح ويهبون من أجله ، وكان التنافس بين هؤلاء الملوك كتسابق الأحزاب السياسية اليوم ، لذلك كثر المديح فى كل قطر من أقطار العالم الإسلامى ، وهبّ الشعراء يتنقلون من مملكة إلى مملكة وراء الممدوح ينالون أجر ما ينفقون من قصيد ويروجون من دعاوة ؛ فقد أحدق الأعداء بالممالك وأصبح لكل بلاط جيش ، ولكل جيش مهمة ، وللشاعر أن يحث الهمم وأن يشيد بنضال الملوك وصبرهم على القتال والجهاد .

وأبو الطيب المتنبى من خير منْ يصور المادحين ويمثلهم فى هذا الميدان ؛ فقد انتقل من ملك إلى ملك ، وشهرته تسبقه فى المديح ، فقام فى كل بلاط مقام الصحيفة السياسية اليوم ، فامتدح سيف الدولة لحروبه وانتصاراته ضد الروم الغازين أو القبائل الثائرة ، ورأى فيه الملك المنقذ والقائد الحكيم والأمير السخى، ورسم غزواته وسراياه تترى ، والدمستق هارب محجر، والجيش الرومى موزع بين القتلى والأسرى ، وأموال العدوّ نهبى ؛ فصوّره كالليث أو السيف أو الغيث ، وقال إنه يملك أنفس الثقلين ويحصى أنفاس الأعداء ، فهو سيف الله لاسيف خلقه ، وهو أطعن من مس سيفاً، وأضرب من أمسك بحسام، يتصرف بالردى ويسوق المنايا :

فأَنت حسام الملك واللهُ ضاربٌ   وأنتَ لواء الدِّين واللهُ عاقِدُ

أحبُّك يا شمس الزمان وبدرَه   وإنْ لامَني فيك السُّهَا والفراقِدُ

فهو شمس الزمان وبدر الوجود ، ولواء الدين وحسام الملك ؛ وهو محض الحلم فى محض القدرة ، يفوق الناس رأياً وحكمة كما يفوقهم حالاً ونفساً ومحتداً . إنه حامى الثغور وقائد الكتائب وبطل الأبطال . وسيف الدولة فوق ذلك كله مجير الشعراء ينيلهم من عطاياه وجوائزه ، حتى قال فيه أحد المؤرخين إنه كان يهدم قرية ليجيز شاعراً ، ولذلك قصده المتنبي وصارحه بحاجته إلى المال ، وطلب إليه ضيعة أو ولاية وإقطاعاً كما طلب إلى غيره من الملوك ، فقال يخاطب سيف الدولة :

أَجزْنى إذا أُنشدتَ شِعرًا فإنَّما   بِشِعْرى أَتاكَ القائِلُونَ مُرَدَّدا
تركتُ السُّرى خلفى لمَنْ قلَّ مالُه   وأَنْعَلْتُ أفراسى بِنُعْمَاك عَسْجدا
إذا سأَل الإنسانُ أَيَّامَهُ الغنى   وكنتَ على بعد جعلتك مَوْعِدَا

وقد اعترف الرجل بأنه طلب ونال فخلف الفقر وراءه وأنعل أفراسه عسجداً بفضله ، وبلغ إلى الغنى ، فلم يخف سعيه وراء المال والمجد ؛ ومديحه ديوان يعدّد أمجاد سيف الدولة ومفاخره فى معاركه وغزواته ، فيخفف الانكسار ويبسط الانتصار ، وكأنه صحيفة شعرية لتاريخ هذا الرجل ، أو سفر ألفه فى مدحه وسيرورة ذكره كما ألف القاضى ابن شداد فى صلاح الدين ، أو ابن قاضى شهبة فى نور الدين ، أو كما يصنع الغربيون اليوم فى نشر محامد المترجمين ، لم يغادر كبيرة ولا صغيرة من حياته إلاّ صنع منها موضعاً للمديح ، حتى جعله أعظم العرب قاطبة ، بل إن العظماء يتمنون فى عصورهم كلها شاعراً كالمتنبى يرفع ذكرهم ويشيد بمآثرهم ، ولكن أنى للعصور أن تلد لكل جيل مداحاً كأبى الطيب ؟ وهو مع ذلك يأسف أنه لم يستوعب كلّ مزايا سيف الدولة ومناقبه ؛ فيقول :

لَيْتَ المدائحَ تَسْتَوْفى مَنَاقِبَهُ فما كُلَيْبٌ وأَهلُ الأَعصر الأُوَل
خُذْ ما تَرَاهُ ودَعْ شيئاً سمعتَ بهِ فى طلعة الشمس ما يُغنيك عن زُحل
إنَّ الهمام الذى فخرُ الأَنام به خيرُ السُّيوف بكفَّى خيرة الدُّوَلِ
تُمْسِى الأَمَانىُّ صَرْعَى دُونَ مَبْلَغه فَمَا يَقُولُ لِشَىءٍ : لَيْتَ ذلك لى

ذلك لأن التواريخ العربية تضرب المثل فى العزّ ، فتقول : « أعزّ من كليب » ولكن المتنبى لم يرض لمليكه هذا بل رفعه فوقه ؛ وجعله كالشمس فى نورها و إشراقها ، وأين نور الشمس إذا قورن بضوء زحل ذلك الكوكب البعيد ؟ ثم وضع سيف الدولة فى جنان النعيم تتسابق الأمانى صرعى فى سبيل رضاه فما يجدُ ما يتمنى ولا يأسى لفقد شىء لأنه فوق الرغبة والأمنية ،ومثله لا يسعى إلى شىء ، وإنما تسعى إليه الدنيا ومناقبها . والمتنبى هنا بلغ مرتبة فى المديح لا ينافسه فيها شاعر ، إذ ركب متن الخيال فاصطاد أبعد الصور وامتطى أجمل التعابير ، يدفعه إلى المديح حبّ مليكه وإعجابه بعروبته وشجاعته ، ووقوفه للأعداء وقفة الأسد الهصور والسور المنيع . وشاعر القرن الرابع كالنابغة يفضل مليكه على الملوك جميعاً ، فهو شمس وهمُ الكواكب ، وهو بحر والملوك جداول :

أرى كُلَّ ذِى ملْك إليكَ مَصِيرُهُ كأَنَّكَ بَحْرٌ والملُوك جَدَاوِلُ
إذا مَطَرتْ مِنْهم ومنكَ سَحَائِبٌ فوابِلهم طَل وطلُّك وابلُ

فهو المطر المنهمر فى سخائه وجوده وكرمه وهم كالطل الشحيح ، وأنه الفتى المغوار والمليك الحلاحل تطيعه الأرواح وتلتف حوله القبائل ، وتقبل بساطه الملوك؛ والأعداء فى الدنيا عبيده والأموال كلها غنائمه، وقد ظلمه من سماه سيفاً فما كل سيف قاطع ، ومكارمه كالسيوف تقطع الشدائد جميعاً . ويتجاوز المتنبى الجود إلى الشجاعة فيرسم سيف الدولة فى صورة بارعة لا نرى فوقها فى مديح

القواد والشجعان الأبطال يقول :

تمرُّ بك الأبطال كَلْمى هزيمة وَوَجْهُك وَضَّاحٌ وثغرك باسمُ
تَجاوَزْتَ مِقْدَار الشَّجاعَةِ والنُّهى إلى قول قومٍ : أنتَ بالغيب عالِمُ

وهذه الصورة يخطبها إسكندر المقدونى ونابليون وغيرهما من قواد الغرب فلا يقعون على مثلها ، وتراها تهادى فى خطب ودّ سيف الدولة لتجعله فى قادة الدنيا وأبطال العالم ، وتهبه العلم بالغيب والمعرفة بالأقدار ، فهو يقف وسط المعارك الصاخبة ضاحكاً لأنه يملك الزمان بكفيه ، ويتحكم فى الحروب ببأسه ، وينتهى فى مدحه إلى غاية بعيدة المدى فيقول فيه :

القائمُ الملكُ الهادى الذى شهدتْ قيامه وهــداه العربُ والعجمُ
لا تطلبنَّ كريمــاً بعد رؤيته إنَّ الكرام بأسخاهم يدًا خُتِموا

وهكذا لم يترك واسطة لمديحه إلا بذلها ، فختم على غيره وسدّ الباب على الأسخياء الكرام وجعله خاتم الممدوحين ؛ ولكن النقاد على ذلك يرون أن هذا المديح متكسب يحثه المال وتدفعه العطايا ، يجاجل باللفظ الضخم والعبارة المتينة ، ويصدر عن اللسان لا الجنان . وخيرٌ منه فى نظرهم مديح أبى فراس الحمدانى ، فقد كان من قريب إلى قريب وحبيب إلى حبيب ، يندفع عن صداقة وإعجاب خالص لا يعكره طلب ولا تفسده عطية ، إذ يقول فى سيف الدولة :

فليتكَ تَحْلُو والحَيَاةُ مَريرةٌ وليتَكَ تَرْضى والأَنام غِضَابُ
وليتَ الذى بينى وبينكَ عامرٌ وبينى وبين العَالمينَ خرابُ
إذا صحّ منك الودُّ فالكلّ هيّنٌ وكلُّ الذى فوق التّراب تُرَابُ

وهذا هو المديح العف الذى يطلب الود ويسعى إليه ويغليه عنده ، وكلّ

ما عداه فى نظره تراب ، وهو أحسن المديح وأجمل الحبّ ؛ لأنه يشيد بالأيادى ويعترف بها فى تواضع وصدق :

فكم لكَ عندى مِنْ أيادٍ وأنْعُمٍ　　رَفَعْتَ بها قدرى وأكثرتَ حُسَّدى

فسيف الدولة قد رفع للأسرة مناراً ، وبنى لها عزًّا قوىّ الدعائم ، وشيد مجداً مشتد المرائر ، لذلك وهبه الشاعر نفسه وهى عزيزة عليه :

شَرَيْتُكَ مِنْ دَهْرى بذى النّاسِ كلِّهم　　فَلاَ أنا مَبْخُوسٌ ولا الدّهْرُ باخسُ

وملَّكْتُكَ النّفسَ النفيسة طائعاً　　وتوهب للمولى النفوس النفائسُ

وفى هذا القول اعتزاز بالملك ، ومديحٌ صاف لشخصه ، وإكبار لبطولته وقدره ، فكم رسم فى قصيده من صور القتال الذى خاضه سيف الدولة حتى اشتكت الخيل من طول السير والنضال ، وعرف الروم أن ليس يعصمهم سهل ولا جبل بجوار هذا البطل الذى يزور الثغور فى كلّ ساعة لا يثنيه خوف ولا يحجبه رعب .

ومدح السرى الرفاء سيف الدولة كذلك فرأى فيه ليثاً يصول ، له فى كل أنملة سحاب وفى كل جارحة شهاب ، خضعت له آفاق البلاد ، وذلت له رقاب الملوك واعتز به الإسلام ، فهو غمام تخشى صواعقه ، وهو كالدهر لا تكبو حوادثه ، والمجد ينتسب إليه لما قام به من غزو الروم والإحسان إلى الناس ، فهو فى السلم أمير يعطى وفى الحرب قائد يستلب النصر والظفر :

فيوم الحرب تطربك المذاكى　　ويوم السلم يطربك النشيدُ

وأنت الدهر إنعاماً وبؤساً　　وما للدهر نعلمه حسودُ

وقد أطال الشاعر فى مديحه ، فخصه بقصائد كثيرة عامرة تجعله حيناً كالبدر فى حسنه والغمام فى جوده ، يحن إلى ورد المنية ، وتجرى سعوده فى البرية ،

يشغل الناس من أصدقائه وأعدائه ، أولئك لا يفرغون من ذكره بالخير وهؤلاء لا يفرغون من ذكره بالخوف . وابن نباتة السعدى امتدح سيف الدولة كذلك فرآه كريماً يبذل مهجته فى سبيل غيره ، ويعلم الدهر فضيلة الكرم والخلق الجميل . وكثير من الشعراء التفوا حول هذا الأمير يتنافسون فى مديحه واختراع الصور الجليلة فى وصفه ، فجعله الوأواء الدمشقى يلبس الأيام ثوب شبيبة بعد أن شابت ، ووضع المنايا تحت ظل سيوفه ، ورسمه بأنه كعبة الآمال وسيد الشجعان ، يلبس الدروع كالغلائل ، ويركب الموت كما يركب الخيل ، ويلخص القول فيه :

أمــانٌ لمرتاعٍ وروع لآمن   وكهف لمطلوب وحربٌ لغالبِ

٤

وظل هذا المديح المتكسب يتقلب على العصور الإسلامية منذ العصر العباسى ، فيزداد عكوفاً على الصور التقليدية ، ويردد ما قيل من قبل ، ويعيد على المسامع ما قاله هؤلاء الفحول لأنهم بلغوا ذروة المديح ، ولا بدّ من انحدار بعد هذا العلوّ الشاهق ، فأصبح الشعراء فى محيط ضيق من المعانى وعدد محدود من الصور ومعجم مرسوم من الألفاظ والتراكيب ، كأنّ الخيال قد بلغ النهاية ، فليس للشعراء أن يضيفوا فى مديحهم للملوك إلا ما يقع فى الندرة بعد الندرة من فكرة طارئة وحادثة طارقة ، فالدول تخوض المعارك والأعداء فى ازدياد ، والغزوات كانت من الروم فأصبحت تفد من أوربة ، تحمل الدمار والنار إلى قلب البلاد الإسلامية ، فنهض المداحون للمعانى الباسلة والصفات الفاضلة يلصقونها بملوكهم ، فهم فى جهاد وقتال ، والملوك قواد الجيوش ووزراء الدفاع ؛ وهم قطب الرحى فى المعارك ؛ عليهم يتوقف النصر ومن أيديهم تسيل الأموال . واستوى فى هذه الصور شعراء المشرق والمغرب فأولئك وهؤلاء كانوا يرون الأعداء

تهجم على هذه المملكة الإسلامية الشاسعة من التبت إلى شطآن الأطلنتى يريدون بها شراً وخزياً ، ويريد لها الشعراء نصراً وفخراً .

كذلك وقف ابن هانئ الأندلسى يمدح المعز ، فيرى فيه الشجاعة والكرم ، فيجعل الملائكة منزلة لنصره ، يطيعه الإصباح والإمساء ، وعليه من سيما النبي دلالة ، وعليه من نور الإله بهاء ، تفر منه الأعداء وتسقط أمامه الهامات ، وهو معز الدين والجود وهادى الرشاد ، وهو ضياء الظلام إذا ادلهمت الدنيا :

فأنتَ سَيَّرتَ ما فى الجود من مَثَلٍ   باقٍ ومن أثَرٍ فى الناس محمُودِ
لو خلَّد الدهْرُ ذا عزّ لعزته   كنت الأَحقّ بتعمير وتخليدِ

وكذلك استعمل ابن هانئ صور القدماء فجعله مثلا سائراً للجود ، شجاعاً فى الأسود ، وبحراً طامى العطاء ، وهو فوق الملوك ، يلهون ويجد ، وهو جوهر وهم عرض ، وهو غيث لا ينقطع :

النُّورُ أَنْتَ وَكُلُّ نُورٍ ظلمةٌ   والفَوْقُ أَنْتَ وَكُلُّ قَدْرٍ دُونُ

وبالغ ابن هانئ حتى عدا الحدود فقال فى المعز الفاطمى :

ما شئتَ لا ما شَاءت الأَقدارُ   فاحكم فأَنت الواحد القهَّارُ
وكأنّما أَنت النبيّ «مُحَمَّدٌ»   وكأَنما أنصارك الأَنْصَارُ
أَنتَ الذى كانت تبشّرنا بهِ   فى كتبها الأَحبارُ والأَخبارُ

وجعله كالنبي محمد ، مرسلاً ونبيًّا تدعمه الأنصار التى ساندت النبي وتخبر عنه كتب الأحبار والأخبار ، بل جعله فوق الأقدار يتحكم بها كأنه

الواحد القهار ؛ وهذا منتهى ما يبلغ إليه المديح ، فالخليفة ظل الله على الأرض فيما يقولون ، وهو شجاع وكريم ، ولكنه لن يرقى رقى الأنبياء ، ولن يبلغ مقدرة الإله ، وإنما هو الشعر المتكسب يخدع الناس ويصور لهم البشر أنبياء وآلهة ؛ وما ذلك إلا لأنه ضاق ذرعاً بالمعانى المطروقة والألفاظ المعروفة فأراد أن يخرج عن الحدود المرسومة والسنن المعلومة ، فسقط فى التهويل والكذب والمبالغة ، فقال الصابى يمدح عضد الدولة :

صلّ ياذا العلا لربك وانحر ... كل ضدّ وشانئ لك أبتَرْ

أنت أعلى من أن تكون أضاحيـ ... ـك قروماً من الجمال تعفَّرْ

بل قروماً من الملوك ذوى السوْ ... دَدِ تيجانُها أمامك تُنْثَرْ

كلّما خرَّ ساجدًا لك رأسٌ ... منهُمُ قال سيفُك : الله أكبرْ

وجعله فى مقام الإله يسجد له الناس ، صاحب طغيان وجبروت يفوق البشر ويغلب الأقدار . وليس ذلك كثيراً إذا قيس بالزعفرانى حين قال فى ممدوحه :

أنتَ الذى دِنْتُ بالسجود له ... حتى لقد قيل : ربّه صَنَمُ

ولا تسل عن غلو المجوس والفرس الصابئة فى مديحها للملوك ، وتفضيلها للفرس على العرب ، وذلك للضعف السياسى الذى أصاب الأمة العربية ، وقسمها شيعاً وأحزاباً ، فضاعت الموازين واختلت المقاييس ، وركب المديحَ كذبٌ ليس فوقه كذب ، وكان ذلك مؤذناً بخاتمة هذا الفن ومصرعه على أيدى هؤلاء الغلاة .

٥

أجل ، سقط المديح فأصبح الشعراء يلحون فى طلب المال ويجددون طلباتهم فى صراحة تبلغ القحة ، يبيعون شعرهم ونفوسهم وينزلون إلى درك الطلب والمسألة . فإن كان المتنبي طلب ضيعة أو ولاية فالشاعر عمارة اليمنى سأل شمس الدين تورانشاه ما لم يسأله أحد مثله :

فَامننْ عليَّ بنصفِ الأَلْف راتبةً   فَقَدْرُ ودّك لا يَحْويه مِقْدَارُ
مقسومة فى شهور العام تحمل لى   أقساطها كلّ شهر وهى إدرارُ

فهو يطلب المبلغ ويرى قسمته على شهور العام فى أقساط تحمل إليه ليعيش وينتعش ، وهذا فى نظرنا نهاية المطاف بالشاعر الحرّ ، ونزولٌ إلى درك السائلين الشحاذين ؛ وبعد عن العفة والإخلاص فى المدح ، وكشف عن أستار المادحين وسقوط بمرتبة المديح فى ظاهر اللفظ وصريح الطلب ، كما فعل سبط ابن التعاويذى حين عاتب الملك العادل يوسف بن أيوب فى عطائه وطلب إليه أن ينظمه على صلات موقوتة معينة من العام :

وكان يا «يوسف» السماح بنا   إلى عطاياك شوق «يعقوب»
حاشاك أن ترسل الصِّلات على   غير نظام وغير ترتيب

فتلاعب باللفظ وجعل شوقه إلى مليكه يوسف شوق يعقوب إلى ابنه ، ثم عاتبه بعد ذلك على النظام والترتيب فى إرسالها ورأى أن لا يسوى بينه وبين غيره فيها :

سوَّيتَ بى فى العَطَاء مَنْ لايجا   رينى فى مذهبي وأسلوبى

وغيرُ بِدْعٍ فالسُّحْبُ مابرحت   يقلّ منها حظ الأهاضيب
شعريَ ربٌّ الأشعار قاطبةً   وهل يُسَوّى ربّ بمربوب ؟

وهو فى هذا يضرب على حوافر المتنبى مع بعد الزمن وفارق العبقرية ، فيقلّده حين طلب أبو الطيب إلى سيف الدولة أن يجزيه لكل شعر يسمعه من الشعراء فهم صدى لشعره ينتحلون منه ويسرقون ويتقدمون به فى المديح ، يرددون ما قاله فكأنه يريد أن يختص نفسه بالعطايا والصلات وأن يحرم منها غيره ، وهو وحده الشاعر وغيره نظام لا يجيد أمراً . وقد صدق المتنبى فأصبح الشعراء يقلدونه فى مديحه وهم أصداء لشعره من غير شك ، يسألون كما سأل ويلحون كما ألح ويبالغون فى ذلك حتى أسفوا فى المسألة والإلحاح والأنانية .

وأصبح المليك فى نظر الشعراء مقسم الأرزاق والآجال بين الورى ، فيقول سبط بن التعاويذى فى مليكه :

قَسَمتْ يمينُكَ فى الورى الأرْزَاقَ وال   آجالَ بَيْنَ مُنًى وبَيْنَ مَنُون
وأريتنا بجميلِ صُنْعِكَ ما رَوَى الرّ   اوون عن أُمم خَلَتْ وقُرُونِ

فجعله فى مقام الإله — عز وجل — يمنح الأرزاق والآجال ، تتعلق به النفس ويقف اللسان على مدحه وإجلاله دون الله ، كأنّ المديح عبادة وصلاة يرتلها الشعراء أمام هؤلاء الآلهة الصغار ، وبذلك يعودون بالشعر العربى إلى وثنية دونها وثنية اليونان ، فيحكون عن ملوكهم أساطير لا تشبهها أساطير القرون الأولى ، ويسقطون بالمديح سقوطاً يظل أجيالاً وقروناً يتردى فى حفرة الجهل والظلمات ...

ولما كان القرن التاسع عشر للميلاد نهض المداحون لملوكهم ؛ فراحوا يقلدون الشعر القديم ، ويتخذون من ألفاظه ومعانيه ميداناً يرتعون فيه ، فقال محمود الساعاتى فى « ولى النعم الخديوى الأعظم » إنه أنار الدنيا ودان لملكه كل مسود ، فعمّ نور العدل مصر ، وأشرقت بسماحته وبجوده ، وتولى الجور عنها ، فبشرى

لأهل البرّ والبحر والعلى، إنه المليك الكريم الشجاع ، يبعث الرعب فى الأعداء، ويكسب الغنى جماعة الأصدقاء ، وجيشه جرّار وعسكره يملأ الأرض ؛ فلما سافر الخديو إلى الحج قال فيه :

مَلِكٌ تَتَوَّج بالوَقَار عَلَيْه مِنْ حُلَلِ المَهَابَة والكَمَال رِدَاءُ
يَسْعَى إلى الحَرَمِ الشَّرِيفِ مُسَرْبلاً بخشوعه وأمسامه الأَضْوَاءُ

وهو على هذا الشعر الركيك يخرج علينا بصور ممسوخة فى تشطير ضمنه التاريخ فى الشعر على عادة العصر ، فسقط وأكثر من السقوط حتى عددنا المديح هزيلاً لا يسمو إلى ابتكار ولا يجرى مع الفحول فى مضمار .

ومحمود سامى البارودى أعاد للمديح أسلوبه المتين ولفظه القديم ، وأضاف إليه صوراً استقاها من العصر ، فاستعمل البرق فى تصوير بشر الخديوى ، وجعله كالطبيب فى شفاء الأمة ثم قال :

لا زلتَ فى فَلَكِ المَعَانِى كوكباً تُهدى الضِّيَاءَ لأَعْيُنٍ وقُلُوبِ

وقلّد القدماء كذلك فى امتداح حسنات المليك وخدماته للشعب ، وخيراته فى الوطن ، فقال إن مصر أصبحت فى عهده شرعة للورّاد ، يرعاها برأفة والد ، ويحميها بصولة أسد . وقدّس المشورة فى الحكم وهى حلية كل راع مرشد، أوصى بها الدين وتقيد بها الغربيون . ورأى فيه نوراً وهداية وسعداً وغنما للأمة والوطن . وهكذا قلّد القدماء فى رفعة المليك واتخذ التعابير العصرية سبيلاً إلى ذلك ، وحذف كلمة العرب والعجم واستبدل بها الشرق والغرب ، وقال بأن الخديو بعث السلم فى الناس ، وأزاح ضباب الحرب ، حتى دعا له بالخلود إلى قيام الساعة :

وَدُمْ عَلَى الدَّهْر فى مُلْك تعيش به مُرَفَّه النَّفْس حتَّى نفخة الصور

وسار حافظ إبراهيم على خطة البارودى فى مديح الخديو عباس الثانى

فى مطلع القرن العشرين، يمجد فيه عزيز مصر ، ويحمد فيه أياديه على الورى فهو حليم عادل ، وهو ابن أكرم من ساروا ومن ملكوا ، وهو الأب المفتدى أجرى الخير فى النيل فاهتزت جوانبه ، وفاض بالنعمى كل سهل وواد ، وهو بنّاء الرجال ، أخلصت له الأمة فى سر وإعلان ، ولولاه ما طلب الشعب حقًّا ولا شعر بحب الأوطان :

حَسْبُ الأَريكة أن الله شَرَّفَها فأَصبحتْ بكَ تَسْمُو فَوْقَ كيوان[1]

وحافظ إبراهيم يدعو لرفعة الشرق ، ونهضة الصقر بعد طول خمول على يدى مليكه وهو محبوب ومحروس :

فَعرْشُكَ محروسٌ وربُّكَ حارسٌ وأنت على ملك القُلُوب أَميرُ

ويعتمد حافظ فى مديحه على خطة القدماء فى نصرة المليك للدين وعمله لرفعة الإسلام وحربه للشرك ، ولذلك يمدح عبد الحميد فيرى أنه تجلى فى يلديز على عرش الجلال وتاجه يهش بالنعمى والمجد ، والمسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها يدعون له ويلحون فى الشكر إلى الله يلتمسون له النصر ، ويثنون على أياديه فى كل مكان، فهو يسكن القلوب جميعاً ويرتعى حبّاتها ويحلّ فى الوجدان . ويشيد حافظ كذلك كما أشاد البارودى بالشورى، ويشكر للملك أنه أقام شريعة الديان ونصر الإسلام بمدافعه وقنابله وبنادقه :

فَلَهُ عَلَى الدُّنيا الجديدةِ نِعْمَةٌ يَشْدُو بِذِكْرِ صَنِيعِها الفَتَيان[2]

فالشاعر يمدحُ الملوكَ كما مدح القدماءُ ملوكهم ، لأنهم أقاموا عمود الدين، ودافعوا عن حياض الملك ، ورفعوا لواء الإسلام ، وعملوا على نهضة الشعوب الإسلامية ، وكان يعجب بالخلفاء الراشدين وعمر بن الخطاب خاصة ويرجو

---

(١) كيوان : اسم للكوكب زحل بالفارسية .

(٢) الدنيا الجديدة : أمريكا — الفتيان : هما الليل والنهار .

للحكام أن يقلّدوهم ، ولذلك رسم سيرة عمر فى شعره لعل الناس يعرفونها ويأخذون بها ، ولعلهم يستعيدون ماضى الإسلام حين كانت شوكته فى كل مكان ورفعته فى كل جانب ولواؤه فى كل صقع .

وأحمد شوقى حمل اللواء فى هذا العصر ، ومدح الملوك مديحاً لا يخلو من جدة وطرافة وجمال وجلال ، فجعل ديوانه سجلاً لتاريخ الإسلام والأمة المصرية ، وما كان للمسلمين والفراعنة من عز ومجد وتاريخ خالد . وقد استوى فى مديحه على صيغ وتعابير تنهض مع العصر وتحلق مع الزمان ، فقال فى عبد الحميد إنه نهض بعرش ينهض الدهر دونه خشوعاً وتخشاه الليالى وترهبه الأيام ! وإنه عين جارية تفيض على مرّ الزمان وتعذب على الدهر ، فتحيي موات الأرض ودارس الرسم فكأنه عيسى ، عليه السلام .

وسجل شوقى أعمال الخليفة للمسلمين ؛ فقد ناموا فى غبطة قريرى العين ، لأنه ساق إلى الأعداء جيشاً أفشى فى البلاد من الضحى وأبعد من شمس النهار ، يرمى به البحر من كل جانب ويرسله فى كل شعب فينتصر ويظفر . وهو بذلك يذكرنا بشاعر الحمدانيين المتنبي إذ يصور جيش سيف الدولة ، ويعيد إلى أذهاننا ذكرى الحروب بين العرب والروم فى رسم هذه المعارك والغزوات . وشوقى يقف بباب الملوك كما وقف المتنبي من قبل ، ويمتدح هؤلاء لعكوفهم على الدين ونصرتهم للإسلام ، ولولاهم لضاع الملك وتشتت أواصر الخلافة ، فهو كشعرائنا القدماء فى هذا سواء بسواء .

ولا يقف شاعرنا عند المسلمين ، وإنما يعود إلى ماضى مصر ، فيمتدح ملوكها القدماء ويشيد بأمجادهم وتاريخهم وأياديهم على أرض النيل . وينتقل بعد ذلك إلى ملوك مصر المعاصرين من سلالة محمد على فيخلص لهم الود . ويمحضهم المديح .

وكان أحمد شوقى فى مديحه صورة للمديح فى أدبنا العربى منذ النابغة حتى اليوم فى أغراضه وصوره ؛ لا يختلف عنه إلاّ فى أساليبه الجديدة التى أخذت من

روح العصر وتعابير المحدثين ، فارتفع بالمديح التقليدى إلى مرتبة تجعله بحق شبيهاً بأبى تمام فى العباسيين ، والمتنبى فى الحمدانيين .

* * *

ونلاحظ أن المدنية الحديثة وتيارات الأدب لم تبدّل من نظرة كثير من شعرائنا فى المديح ، بالوطن والمهجر ، كأنّ الشاعر ما يزال فى حاجة إلى من يدعمه ويسانده ، لا يحلّق إلاّ إذا كساه هؤلاء ريشاً يطير به ليعيش موفور الكرامة مكفى المئونة ، يحقّق طموحه المجنح على أيدى الملوك ، فيستوى بذكائه وثقافته مع غيره من الميسورين فى صعيد واحد من عيش رافه ومنزلة مستقرة .

الفصل الثانى

مديح الأمراء والوزراء والوجهاء

١

كانت صلة الشعراء بالوجهاء والأشراف والأمراء والوزراء والقواد أشد من صلتهم بالملوك والخلفاء ؛ ولم يكن من الميسور دائماً أن يحظوا جميعاً بلقاء الملوك والدخول على الخلفاء، لذلك تعلّقوا بأسباب منْ دونهم وسيلة إلى الجاه حيناً وإلى المال أحياناً . ونظر الشعراءُ إلى هؤلاء غالباً ، نظرة الغريق إلى المنقذ ، والفقير إلى الغنى ، والمحتاج إلى المتفضّل ، فامتدحوهم كما مدحوا الملوك ، ولعلّ مردّ ذلك إلى أن المديح ضاق بهم عن اختراع لون مختلف لكل طبقة من طبقات الممدوحين ، أو لأنهم كانوا ينظرون إليهم نظرتهم إلى الملوك من غير تفريق أو اختلاف . وقد عرضنا فى الصفحات السابقة أغراض الشعراء ومعانيهم حين يمتدحون الملوك ؛ وعرفنا كيف كانوا يصفون هؤلاء الخلفاء ، وسنبين هنا فى إيجاز ما كانوا يقولون فى هؤلاء السادة وجهاء الأمة ، ونبلاء العشيرة وقادة الجيوش .

مدح النابغة النعمان بن الجلاح قائد الحارث بن أبى شمر الغسانى ، ومدح غيره فى الحجاز ، وكان يشيد بعلو المنزلة والسخاء والشجاعة والتدين والعقل والحجى ، وقد كان أول أمره يبعث الشكر ويرسل الثناء لما نال من كرم وندى ، ثم تكسب بذلك فأصبح هذا اللون حرفة له . وهو يصرّح فى شعره بأنه لم يمدح عمره سوقة ، وإنما يمدح العظماء والملوك .

ومدَح زهيرُ بن أبى سلمى كل من قام بإصلاح ذات البين أو عمل عملا كريماً ، كما فعل مع هرم بن سنان والحارث بن عوف حين أصلحا بين عبس

وذبيان ودفعا الديات من مالهما الخاص حقناً للدماء . وكان مدحه لهما ولغيرهما يقتصر على ذكر الصفات البدوية من شجاعة ورأى كريم ، وأصل عريق وتقوى خالصة . وكان زهير مخلصاً فى هذا المديح يسعى وراء المعروف والفضل فيشيد بهما ، ولكنه كان يفتتح المديح بالغزل التقليدى ، ثم ينتقل إلى صفات الممدوح فيقول فى هرم :

أَغَرُّ أَبْيَضُ فَيَّاضٌ يفكّك عَنْ ... أَيْدِي العُناة وَعَنْ أعناقِهَا الرِّبَقَا[1]

مَنْ يَلْقَ يوماً على عِلاَّتِهِ هَرِماً ... يَلْقَ السَّماحة مِنْهُ والنَّدى خُلُقا

لو نال حىّ من الدنيا بمكرمة ... أُفْقَ السَّماء لنالتْ كفُّهُ الأُفقا

فهو بيّن الكرم ، يشرق وجهه بالندى ، كثير العطاء ، خلقت معه السماحة والجود ، يحتل بمكارمه مكاناً سامياً حتى لتلامس كفه الأفق فى رفعته وسمو منزلته وعظم مقامه بين الناس . وهذه صفات العرب ومثلها العليا . ويقول زهير فى هرم كذلك إنه حامى الذمار ، حدبٌ على المحتاج ، يحنو عليه حنوّ المرضعات على الفطيم ، ويسعى إلى جميل الأحدوثة وطيب الذكر . وهو مع الحارث بن عوف يتداركان الأحلاف فى الضيق ، فيحوم حولهما أصحاب الحاجات يسألونهما ما يريدون ويعطون ما يطلبون ، ومجالسهما تشفى بأحلامها وآرائها كل جاهل متعنت :

فما كان من خير أَتَوْهُ فإنما ... توارثه آباء آبائهم قبلُ

وإلى هذا الخير والكرم يجتمع فى الممدوحين عند زهير فضل الشجاعة والبطولة ، يكررهما كلما وقف عند مديح فيقول فى حصن بن حذيفة :

وأبيضُ فيّاض يداه غمامة ... على معتفيه ما تغبّ نوافلُهْ[2]

---

(١) أغر : فى وجهه غرة ، أى أنه بين الكرم — فياض : كثير العطاء — العناة : الأسرى — الربق : ج ربقة وهو حبل طويل فيه مواضع تجعل فيها رؤوس الحملان ، وهى الأغلال هنا .

(٢) المعتفون : الذين يطلبون ما عنده — نوافله : عطاؤه كل يوم ، أى أنها دائمة .

ويعيد هنا قوله فى هرم وعبارته نفسها ، فيشهد أن ممدوحه نقى من العيب صاف من الدنس والعيوب ، ويداه تسحّان كالغمامة وتمطران بالعطاء ، وهو كريم بماله يسخو باشًّا متهللاً إذا ما أقبل إليه طالب معتف :

تَرَاه إذَا مَا جِئْتَهُ متهلِّلاً ... كأنَّكَ تُعْطيه الَّذى أنتَ سَائِلُهْ

وهذه صورة ألح عليها المتأخرون ، وكرروها وأعادوها فى شعرهم بعده ، يصفون المتفضل وهو يجود بماله قرير النفس باش الوجه كأنه يتقبل الهدية ، يأخذ ولا يعطى — كما رأينا فى الفصل السابق .

وأما الأعشى فقد مدح كثيراً ، وشكر كل من أهدى إليه أو أغدق عليه حتى جنح إلى المسألة والتكسب ، فقيل فيه إنه أول من سأل بشعره ، وهو يصف كذلك الشجاعة والكرم ، وأصالة النسب وحماية الجار وإغاثة المكروب ، ولا يخرج فى صفات ممدوحه عن المثل العليا عند العرب والصفات الفاضلة المفضلة ، ويغالى فى مديحه حتى يخرج عن حدود التصديق ، فيقول فى هوذة الحنفى :

فتى لو يُنادى الشَّمْسَ ألقت قِنَاعها ... أو القَمَر السَّارى لألقى المَقَالِدَا

وهذه صورة بارعة فى علو المقام وشدة الهيبة ، ينادى الشمس فتطيعه ، ويخاطب القمر فيلبّيه ، ويضيف الأعشى إلى ذلك أن ممدوحه أحلم من قيس وأجرأ من الأسد ، يستخف بالجموع ويستهين بالشجعان ويعدو وحده على الجموع ولو بلغ الرجال ثمانين . ويمتدح سلامة بن فائش أحد أمراء اليمن فيشيد بشجاعته وبأسه ، لأنه يسبى النساء فلا يدفع فيهن مهراً ، ويسوق النوق فى الغارات إلى بيته لتقيم فى فنائه وتضاف إلى ملكه ، وهو قوى معطاء يهلك ماله حين يشتد القحط فى الشتاء وتهزل المرضعات ، فيجير الشعب ويطعم الجائع ويكسو العارى ، فكأنه وحده مصدر جمعيات للإسعاف فى عصرنا الحاضر ، يقوم بمفرده مقام الدول والهيئات ، وكذلك كان التعاون والتعاضد فى نظر

الجاهلية ، وكذلك كانت المثل العليا فى نظر الشعراء . وقصيدة الأعشى فى المحلّق مشهورة ، ولو أنه لم يكن فى الأمراء أو الوزراء ، لكنه وصفه كذلك ووضعه فى مصافهم ورتبتهم .

والحطيئة مدح الزبرقان بن بدر فخصّه بكثير من شعره ، ورأى فى آل لأى سادة نجباء ، يردّون على الجار ما يفقد ، ويعطونه حين يعطب ، وينقذونه من الهلكة والتلف ، ولا يظهرون الامتنان عليه ، فيقول فيهم :

سِيرى أمام فإنَّ الأكثرين حَصًى ... والأكرمين إذا ما ينسبون أبا
قومٌ هُمُ الأنْفُ والأذْنَابُ غَيْرُهم ... ومن يُسَوّى بأنف الناقة الذنبا
قوم يبيت قرير العين جارهم ... إذا لوى بقوى أطنابهم طنبا [1]

فهم أكثر الناس عدداً وأكرمهم أباً ، فى الذروة من السمعة والعزة ، يعيش جارهم قرير العين موفور الكرامة مكفى المئونة ، وهذه أخلاق جاهلية كلها ؛ وكذلك مدحه فى آل شماس ، يتناول القبيلة كلها فيرى أنهم ينعمون ولا يكدرون نعمتهم بالمنّ والذكر ، شجعان مطاعين ، والحطيئة يمدح على طريق البداوة ، فيرسم القوم والقبيلة وهو يمدح الرئيس والوجيه ؛ ويفصح عن عاطفة العرفان بالجميل ، فيشكر العطاء ويثنى على المال واليد ، فقد انتشلوه من فقر وحاجة .

ومدحَ الفرزدقُ كثيراً من العمال والولاة والوجهاء فى العهد الأموى فنظر إليهم نظرة الشعراء الجاهليين ، فأثنى على الشجاعة والكرم وأصالة النسب . وقال فى بلال إن كفيه كالحيا تسقيان الأرض ، وإن العيس تسعى إليه كما يسعى البشر ، وإنه كريم :

فكم من عدوّ يا بلالُ خَسَأْتَهُ ... فأغْضَتْ له عَيْنٌ على ما يريبُها
رأيتُ بلالًا يشترى بتلاده ... مكارم أخلاق عظام رغيبها

---

(١) لوى : شد وعقد .

فهو يقهر الأعداء ويشترى الحمد بالمكارم والعطايا . وكذلك يمدح الحجاج وخالد بن عبد الله القسرى، يشكرهما على النعمة ويدعوهما إلى إنقاذه مما هو فيه من ضنك فى العيش وحاجة إلى المال .

وجرير ، مدح القواد والأمراء فأثنى على كرمهم وشجاعتهم وتكسب بمديحه ، واتبع الأساليب العربية القديمة فيه ، فجعل الحجاج أثقب الناس شهاباً ، وهدد به الأعداء ، فقال :

إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ ... رأى الحجَّاجَ أَثْقَبَها شِهَابا

ترى نصر الإمام عليك حقًّا ... إذا لبسوا بدينهم ارتيابا

ثم قال إنه ماض على الغمرات ، منع الرُّشا وأرى الناس سبيل الهدى ، ونكّل باللصوص وشفى من الفتن :

مَنْ سَدَّ مُطَّلع النفاق عليهم ... أم مَنْ يَصُول كَصَولَة « الحَجَّاج » ؟

أَمْ مَنْ يغارُ على النساء حفيظةً ... إذْ لا يثقن بغيرة الأَزواج ؟

وهذه أخلاق عربية ولدت مع هذه الأمة ، وظلت مثلا أعلى لكل شاعر عربىّ يرى فى الكرم والسخاء والشجاعة والبطولة وحماية الجار والغيرة على النساء والحفاظ على الأعراض ومنع الرشوة والفساد والتنكيل باللصوص وإشاعة العدل والخير ، ما يمدح له الرجل ويثنى عليه ويشاد بفضله . ولذلك لم يتعد المديح فى أغراضه هذه الصفات خلال العصر الأموىّ كله ، والعرب سادة فى الحكم ، وقادة فى الجيش، وحكام فى الولايات والمقاطعات ، يمدّون أعناقهم إلى ماضيهم فى الإباء والنخوة والحمية فيستحون أن يكونوا على غير ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم ؛ ويرى المداحون فى الإبقاء على هذا الخلق العربى والتحلى بصفاته مادة للمديح وواسطة للحمد والثناء .

* * *

٢

ولما كان العصر العباسى ، توزعت المناصب وكثرت الإمارات والوزارات ، وتفخم الملك ، فكان فى كل ولاية أمير وفى كل إقليم حاكم ، فانصرف الشعراء إلى هؤلاء الوجهاء والسادة يمدحون ويتقربون إليهم ويتكسبون عندهم ويطلبون قضاء حاجة وبلوغ أوب . فبشار حين مدح وزير المهدى ، اعترف بأنه طال انتظاره للثواب ، وحين توجه إلى غيره من آل برمك قال إنه حلب بشعره راحتى الممدوح فدرّ كما يدرّ السحاب مع الرعد ، ذلك لأن الأخلاق دبّ إليها الفساد فكثر القول وراج النفاق ، وأصبح التصديق فى محنة ؛ فلم يكن يؤمن الممدوحون بكل ما يقال ، وإنما كانوا يعدون الكلام بضاعة وتجارة يروّجها من يستطيع ، ويسيرها من أوغل فى البيان وتصرّف فى الشعر ، من غير أن تصدر غالباً عن قلب مؤمن بما يقول ونفس مخلصة فيما تنشد . وكان الشعراء يحسون هذا ، ويعلمون أنهم فى حاجة إلى أن يؤكدوا المديح ، وإلى أن يسرفوا فى التعظيم والمبالغة ، لعلهم ينالون ويعودون بالجائزة والعطية والمنحة فدخل المديح غلوّ عجيب ، واضطر الشعراء إلى أن يرفعوا الوزراء والوجهاء والأمراء فى مدحهم إلى مرتبة الخلفاء والملوك ، وإلى أن يسبغوا عليهم أثواباً فضفاضة ، حتى اختلط على الناقد التفريق بين ما قيل فى الخلفاء وغير الخلفاء ، لتقارب الصور والصيغ ، وأحسّ الشعراء بهذا فحرّموا الإطالة فى المديح وكرّهوا الإسراف فيه فقال شاعرهم :

وإذا امرؤ مدح امرأً لنواله ... وأطال فيه فقد أراد هجاءه

لو لم يقدّر فيه بعد المستقى ... عند الورود لما أطال رشاءه

وأصبح المديح حرفة ومهنة ، يبذل صاحبها ماء وجهه فى سبيل المال ، وغدا الفحول من الشعراء يكرهون أن يكونوا فى سلك الشعراء ينظمهم اسم واحد لكثرة

ما ابتذل الشعر واقترن بالضعة وخاصة في القرنين الثالث والرابع ، فنفى أبو فراس الحمدانى عن نفسه صفة الشاعر وقال :

نَطَقْتُ بفضلى وامتدحت عشيرتى ... وَمَا أَنَا مَدَّاحٌ وَلَا أنا شَاعِرُ

ذلك لأنه أمير يعتزّ بمكانه من العرب ونسبه فى القبائل ، فلا يرى أن يسلك مع هؤلاء المدّاحين الذين اتخذوا الشعر آلة للتكسب ، يحملون قصائدهم إلى أبواب الوجهاء والوزراء والأمراء فيؤذن لهم بالوقوف بين أيدى هؤلاء ، وينشدون قصيدهم ثم ينصرفون بصرّة صغيرة أو كبيرة ، وهم بها مستبشرون فرحون . والمتنبى تعاظم حتى اشترط أن لا يقف بين يدى ممدوحيه ، فأنشد قاعداً ، ولذلك سقط الشعر ونزل عن صولجانه وعزته وكرامته لهذا المديح التجارى ، بعد أن كان للشاعر المقام الرفيع تهنئ القبائل بعضها بعضاً بنبوغ الشاعر وتفرح لنشيده وتقوم وتقعد لقوله ، وانقضى ذلك الزمن السحيق حيث يمجد الشاعر وتفرش الولائم لمقدمه ، وتصنع الأفراح لانتقاله ، ويحل من الملوك محلّ الأخ والخدن والصديق يحكم فى أموال الملوك ويقرّب كما قلنا . وذلك لأنه كان يخص شعره بالملك والخليفة فلا ينحدر ولا يسفل ، ولكنه امتدح مَنْ دونهم وأصبح يبغى فى صيده الأسد والهرّ معاً ، ويعود بغنيمة حيناً أو يرجع صفر اليدين أحياناً ، كما قال المتنبى :

وشرُّ ما قنصته راحتى قَنَصٌ ... شهب البزاة سواءٌ فيه والرَّخَمُ

فكثر الفقر بين الشعراء ، وأصبح النقاد يقولون : « أدركته حرفة الأدب » ومردّ ذلك كله إلى هذا المديح الذى نعرض بعض صوره العباسية عرضاً سريعاً لنتبين الغاية التى كان يهدف إليها من بلوغ المال وقضاء الحاجة والسعى فى لقمة العيش . وقد لازم العصور العباسية كلّها ، وورثنا إلى اليوم نظرة الناس إلى الشاعر المدّاح ، فلم يخلف الشعراء المعاصرون ظن النقاد وقلدوا العباسيين فى ذلك ، فأدركتهم حرفة الأدب كذلك ، وا ويلتاه ، وراحوا يمدحون إذا نالوا

ويهجون إذا حرموا ، كأنهم يحملون قيثارة المديح بيمناهم ليطربوا السامع ، فإذا رأوا فيه الصمم والغفلة عن نشيدهم تناولوه بسياط الهجاء ، وكذلك يختارون الدواء لكل علة ، ويجدون القول فى كل ميدان .

وقد قال بشار فى أمير من آل برمك ، يعده بالمدح ويطلب منه الكرم :

فإن تُعْطِنى أُفْرِغْ علَيْكَ مَدَائحى وإنْ تـأْبَ لَمْ يضرب علىّ سدادُ
ركابى على حرف وقَلْبى مشيَّعٌ وما لى بـأَرض البَاخِلِينَ بلادُ

وهذه صراحة فى السؤال لم نشهدها فى الأمويين والجاهليين قبلهم ، وطلب لم يعرض له الأجداد من شعرائهم بهذه السهولة وهذا الإلحاف ؛ وذلك لأن المديح يورث الغنى ويكسب الترف ويقتل العدم ، فيقول بشار :

لَمَسْتُ بكفى كفَّهُ أَبْتَغى الغِنَى ولَمْ أَدْر أَنَّ الجُودَ مِنْ كفّه يُعْدِى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أَفَدْتُ وأَعدانى فأَتلفتُ ما عندى

وهذان البيتان أعجبا النقاد واستثارا مواطن التقريظ فى كتبهم ، لأن الشاعر يجد فى الجود عدوى تنتقل من الأيدى إلى الأيدى ، فهى عادة تتلف الأموال . والشاعر يصف الممدوح بأنه موضع العطاء ، يصيب القريب والبعيد ماله وسخاؤه ، ويطعم الفقراء ويعيل الضعفاء :

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ ينتشر الحَبُّ وتُغْشَى مَنَازِلُ الكُرَماء
ليس يعطيك للرجاء ولا الخو ف ولكن يلذّ طعم العطاء

فالشاعر يهتدى إلى الممدوح كما يهتدى الطير إلى مواقع الحب ، فيغشاه وينزل عنده لينال من سيده نوالا خوفاً ، ولكن طمعاً باللذة وسعياً وراء جمال العطاء ، وكذلك يبين الشاعر أن الممدوحين كانوا يعطون أحياناً عن خوف — كما كنا نقول قبل قليل— وقد تناول بشار فى مدحه إلى هذا معانى القدماء فى

الإعجاب بالشجاعة والسخاء وقتل الأعداء وخوض المعارك ، وأشاد بأن أميره صنعه ذا غنى وجعله ذا ثراء بعد أن كان يغوص فى العدم والفقر يستجدى الأكف ويستندى النفوس . وكذلك كان العباسيون من الشعراء يطلبون العطية صراحة ويسألون الهدية إلحافاً ، ويقفون من الأغنياء موقف الصاغر المستنجد ، فامتلأت كتب الأدب ودواوينه بهذا اللون من المديح ، واحتاج الكتاب والمؤلفون إلى أن يخصوا فصولاً من كتبهم بالهدية والعطاء ، فألف الخالديّان كتاباً « فى التحف والهدايا» جمعا فيه ما قال الشعراء وهم يطلبون الهدية ، وما قالوه وهم يشكرون للمهدى ، وذلك ثقيل على نفوسنا فى العصر الحاضر ، وقد أصبح للعزة والكرامة عند الكاتب الحر معنى بعيدٌ عما كان فى نفوس كثير من هؤلاء الشعراء المدّاحين . فالسائل فى عرفنا يشبه المستعطى ؛ يطلب بمدح ، ويشكر عن العطية بمدح ، حتى كان فى الشعر شبيه بالأوراق التى تقدم اليوم فى طلب الحاجة واستنجاز العطية وبيان فقر الحال ؛ ولن نضرب لذلك كثيراً من الأمثال وإنما نورد صورة واحدة منها لشاعر عباسى :

فأبو العتاهية يهدى إلى الفضل بن الربيع نعلا ، ويتمنى معها بشعر يرسله إليه أن يشرك خدّه بالنعل :

نَعْلٌ بَعَثْتُ بها لتلبَسها ... تَمْشِى بها قَدَمٌ إلى المَجْدِ
لو كان يَصْلُحُ أنْ أشرّكها ... خدّى جَعَلْتُ شراكها خَدّى!

وما نرى كثيراً من الناس يقبلون بأن ينسب إليهم هذا الشعر إلاّ إذا كانوا فى المتصوفة حين يتوجهون إلى الله أو إلى رسوله ، فعند ذلك تتصاغر النفس وتتضاءل ، ولها أن تقف من الخالق ضارعة ذليلة ، ولكنها لن تقف من الوزير أو الأمير الموقف نفسه ، فذلك ما يأباه عزيز أو كريم .

وظل الشعراء يبالغون فى ذلك حتى قال أبو نواس فى « الخصيب » :

أَنْتَ الخصيبُ وهذه مصرُ فَتَدَفَّقا فكلاكُما بَحْرُ
ويحقّ لى إذ صِرْتُ بينكما أن لا يحلّ بساحتى فَقْرُ

وهكذا ينتجع الشاعر مرابع الأجواد يلتمس عندهم النعم والعطاء ، يبدئ ويعيد فى ذكر فقره وحاجته ، لعلّه يبدل عسره إلى يسر ، حتى ليقول فى الممدوح إنه أبوه كما قال أبو نواس :

وكنتَ أباً سوى أنْ لم تَلِدْنى رَحيما أَوْ أَبرَّ مِنَ الرَّحِيمِ

ومسلم بن الوليد ، مدّح الوجهاء والرؤساء كذلك فأجاد ، وأبان عن قصده المال والعطاء ، وركب الطريقة التقليدية ليبلغ إلى امتداح الشجاعة والبطولة ، فيقول فيه إنه قائد مغوار فى سبيل الدين يكسب الحمد بفعاله العظيمة ، وإنه يستصغر الدنيا إذا عرضت له فى همة أو نائل أو موعد :

فَلَأَنْتَ أمضى فى اللقاءِ وفى الندى مِنْ باسل وَرْدٍ وغادٍ مرعدِ
أَعْطَيْت حَتَّى ملَّ سائلك الغنى وعَلَوْتَ حتى ما يقال لك ازددِ

فهو شجاع وكريم ، بل إنه أسد فى الحرب وسحابة فى الكرم ، وقد أعطى حتى ملّ السائل كثرة الغنى لعطائه فما يستزيده ، وبلغ الذروة فى الشجاعة والمجد فما وراءهما ذروة . ومن أحسن مدائحه فى يزيد بن مزيد ، حين مدحه بشجاعته فى الحرب وعمله فى القتال فقال :

يَفْتَرُّ عند افترار الحَرْب مبتَسِما إذا تَغَيَّر وجه الفَارس البَطَلِ
موفٍ على مُهَجٍ فى يَوْمِ ذِى رَهَجٍ كأَنَّه أجلٌ يسعى إلى أمل
يَنَالُ بالرِّفْقِ مَا يَعْيَا الرِّجالُ بِهِ كالموت مستعجلا يأْتى على مَهَلِ

يضحك فى الحرب لأنه يعرف أنها أقل من همه وأصغر من أن تخيفه ،

والفرسان الأبطال من أعدائه يخشونها ويرتعدون منها ، فهو كالأجل يقضي على منْ يريد أو كالموت يستبطئ ضحاياه لكنه يسقيهم الكأس الأخيرة . وقد تعوّدت الطير أن تتبعه فى كل مرتحل لأنه يسوق إليها دائماً جثث الأعداء وهاماتهم فيقربها وتنعم بخيراته . ونلاحظ أنه يركب طريقة القدماء فى احترام الشجاعة ، وتقديس البطولة ، لكنه يستعمل الصور البديعة والمعانى البليغة ، فيحلّق فى ذلك ويفتح الطريق لأبى تمام والمتنبى فى رسم الممدوح ووصف شجاعته ، فقد تسلم قبلهما راية المديح وشرف القيادة ، فجاء بالأجل والموت والدهر ، وجعل الممدوح يتحكم بالمعارك والغزوات كأنه يعرف خواتيمها ونتائجها ، على ثقة من النصر والظفر .

وقلده أبو تمام فى ذلك فملأ ديوانه بهذا المديح ، وقدّس كذلك البطولة فى صور رائعة ، وصف فيها جلائل الأعمال فى الحرب والسلم ؛ فقال فى ممدوحه إنه فارس الإسلام يحيي نجدة ابن الوليد وشهامة الأبطال المغاوير ، وهو عجيب حين يشرك الناس معه فى امتداح من يريد :

كريمٌ متى أَمدحه أَمدحه والورى معى ومتى ما لُمتُهُ لُمتُهُ وَحْدى

فهو ينطق بلسان العالم ، ويتحدث بجنان العرب والمسلمين جميعاً ، يسيرون معه فى مديحه ، لأنه صادق لا ينطق عن كذب ، وقد وفق أبو تمام فى مدائحه هذه حتى لنستطيع أن نصنع من مجموعها ملحمة إسلامية تعدّد البطولات وترسم الغزوات ، لو انتظم عقدها فى كتاب لكانت أسبق من الشاهنامة فى وصف الأمجاد والمفاخر ؛ وهو يكثر فى ديوانه من تعداد الأعلام التاريخية يضرب بها المثل ، وقد تبعه فى ذلك الشعراء بعده ، قال أبو تمام :

إقدام «عمرو» فى سماحة «حاتم» فى حلم «أحنفَ» فى ذكاء «إياس»[1]

---

(١) هو عمرو بن معد يكرب ؛ وإياس هو ابن معاوية ، كان قاضياً بالبصرة .

لا تنكروا ضربي له مَنْ دُونه   مثلاً شرودًا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأَقلَّ لنوره   مثلاً من المشكاة والنبراس (١)

وهكذا جمع لممدوحه صفات القدماء والمحدثين من أبطال الدنيا العربية ، وجمع من القرآن ما دعم به نظريته فى ضرب الأمثال والاستشهاد بالرجال .

والبحترى سار فى السبيل نفسه ، فجعل ممدوحيه مشاعل تضىء فى الكرم تتوقد فتطفئ الكواكب ، وسيوفاً مشهورة على الأعداء ، وشبههم بالربيع يجلبون النور والزهر والعطر على الدنيا ، وأياديهم عنده مذكورة تزيد فى لمعانها على الشمس (٢) :

يَدٌ لك عِنْدِى قَدْ أَبرَّ ضِياؤُها   على الشَّمْسِ حتى كاد يخبو سراجُها

وهكذا كانت الأفعال الحميدة مشكورة مذكورة فى مغالاة وإسراف ، ترتفع على النجم وتخفى نور الشمس ، يغص بها ديوان البحترى فلا يقف لها إحصاء ولا يوفيها عرض أو نقد . ومثله ابن الرومى فقد غالى كذلك وأسرف فقال :

مهما أتى الناس من طول ومن كرم   فإنما دخلوا الباب الذى فتحا
يُعطى المزاح ويعطى الجدّ حقَّهما   فالموت إن جدّ والمعروف إن مزحا

وذلك يحيرنا ويجعلنا نتساءل عن مبلغ الصدق عند هؤلاء الشعراء ، وهل نؤمن بما يقولون ؛ وعند ذاك نقع فى مشكلة مع التاريخ لا ننتهى فيها إلى معرفة

---

(١) يشير إلى الآية الكريمة فى قوله جل وعلا : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » — والمشكاة : كوة غير نافذة — والنبراس : المصباح .

(٢) مدح ابن الرومى أيادى الناس وأناملهم حتى قال فى ابن المدبر :

قبل أنامله فلسن أناملا   لكنهن مفاتح الأرزاق

أكرم الكرماء وأشجع الشجعان ؟ ومن هو الذى فتح الباب وغطى نور الشمس ؟ وارتفع فوق الناس ذكره واشتهر فوق العالم أمره ؟ حتى جاء المتنبى فبلغ بهذه المغالاة درجة نضل معها فى هذه السبيل للموازنة بين الرجال وأقدارهم ، فقد قال فى سيف الدولة :

قَتَلْتَ نُفُوسَ العِدى بالحَدِيـ ـد حَتى قَتَلْتَ بِهِنَّ الحَديدا

كأنك بالفقر تبغى الغنى وبالموت فى الحرب تبغى الخلودا

وأرانا كيف يقتل الشجاع الحديد ويبلغ بذلك سدة الخلود . ورسم ممدوحيه كالبدور والشموس، وجعل همتهم فوق الهمم وبالغ حتى جعل البحر يستقى من كرمهم ، وقال فى فاتك :

أَبو الشُّجَاع أَبُو الشُّجْعَانِ قَاطِبَةً هَوْلٌ نَمَتْهُ مِن الهيْجَاء أَهْوَالُ

تملّك الحمد حتّى ما لمفتخر فى الحمد حاء ولا ميم ولا دال

فهل يذكر المتنبى كم ترك لسيف الدولة بعد مدحه فاتكاً ؟ ! إنه يقول إن فاتكاً تملك الحمد حتى ما لمفتخر حمد ، فلم يجعل أى فرق فى هذه المدائح بين الممدوحين ، ولو جردت من عنواناتها لضللنا السبيل إلى معرفة اسم الممدوح وطبقته من الأمراء والملوك والقواد لأنه كان يعتمد فى أقواله على المبالغة والتهويل ، فيكبّر الصغير ويصغّر العظيم ، وهذا دليل على أنه كان يصدر فى ذلك عن لسانه لا عن جنانه ، فلم يكن يقوم على عاطفة ، وإنما على عقل ينصرف وفاق الغاية والهدف والطموح .

ولم يختلف عنه الشعراء الذين جاءوا بعده أو عاصروه متأثرين بأساليبه ، فقد كان السرىّ الرفاء وابن نباتة السعدى ومهيار الديلمى يمدحون كما كان يمدح فى صور قريبة من صوره يثنون على الشجاعة والكرم ، ويرسمون الوجوه الباشة والأيادى الكريمة ؛ وقد زاد بعضهم فأرسل يمدح فى تهنئة أو فرح بزواج

وولادة أو شفاء بمرض أو مناسبة عيد أو صيام رمضان ، كأنهم يسجلون الأفراح بمدائح لا تفوتهم منها شاردة أو واردة ؛ فهم الصحفيون الرسميون والمؤرخون في الشعر ، حين يلازمون ممدوحيهم ويصدرون عن أحوالهم بلاغات لكل حادث طارئ عظم أو أسف . ولذلك كانوا يعمدون غالباً إلى الإنكسار فيصورونه انتصاراً ، أو يخففون من وقعه وحدّة الخزى فيه ، حتى يخيل للناقد المتتبع أن الأعداء كانو يفرون دائماً أمام هؤلاء الممدوحين ، ويولون الأدبار فيتولاهم الذل والخوف والجزع والرهبة ، وأما النصر والظفر والهيبة والإشراق والعظمة فكلها لهؤلاء الوزراء والأمراء والقواد ، لم نسمع ببطولة جندى معين أو شجاعة الرعية ، وإنما رأينا العجاجَ يثور والسيوف تفعل فى الرقاب ولحنا العدوّ بعد ذلك بعضه يولى منهزماً وبعضه قد ملأ الأرض بجثثه وقد حام حولها الطير ، فالمنية فى أيدى هؤلاء الممدوحين يتصرفون بها كيف يريدون ، وينزلون الضربات القاصمة على من يعادون . حتى ليتساءل بعض المستشرقين إذا كان هؤلاء الشعراء يجهلون الحروب أو أنهم لم يشهدوها ، فكأنهم يصنعون البيانات بالانتصارات يتقدمون بها كتهنئة لعودة هؤلاء العظماء إلى قصورهم ، يغدقون على شعرائهم من جديد ، فكأنهم يمطرون الشعب كله بكرمهم ويعمون الدنيا بخيراتهم ؛ ولعلهم كانوا يعتقدون أن الجيش يصلح بالرأس وحده وينتصر برأيه ، فإذا فسد انهار الجيش كله . وقد أدرك أحمد شوقى هذه الفكرة فى القرن العشرين فقال : « ولا الجيش إلا ربّه حين ينسب » ولعله استخلص ذلك من قراءاته لأدب المديح فسار هو نفسه على هذه الخطة ، ولم يخرج بذلك عن تشبيهات القدماء ، ووصف قوة الوزراء وبسالة القواد ونظر إلى هؤلاء من خلال الدين وحماية الإسلام كما نظر العباسيون من قبل ، فأشاد بمصطفى كمال وشبهه بخالد بن الوليد ، وذكر تقاه وبلاءه وعظيم تفانيه مع قواده :

قُوّادُ مَعْرَكَة وردّادُ مَهْلكة ... أَوْتادُ مَمْلَكَة آسَادُ مُحْتَربِ

بَلَوْتَهُمْ فتحدّث كم شددت بهم ... من مضمحلٍّ وكم عمَّرت من خربِ

فبسط فضل هؤلاء الرجال الذين تعاونوا مع مصطفى كمال للوصول بالجيش إلى شاطئ النصر . وليس عجيباً أن يمدح شوقى بطل الترك ، فقد كان يعجب بالبطولة أنى كانت ، فمدح القائد نابليون حين وقف على قبره بباريس ، ورسم عصاميته وبطولته حين اصطاد شاه الروس والنمسا ؛ ومدح سعد زغلول سياسياً وزعيما .

وشارك الشاعر إسماعيل صبرى فى مديح الوجهاء والوزراء ، فأشاد بصفات واصف غالى ، وأثنى على مواقفه الغر فى الدفاع عن الشرق والذود عن أمجاد العرب .

وقال حافظ إبراهيم فى سعد زغلول إنه زعيم النيل يفيض النور من طلعته ، وخلاص البلاد يكون على يديه .

والشعراء المعاصرون فى الأقطار العربية يمدحون الوزراء والوجهاء ، والقواد ، وأرباب المناصب الوزارية العالية ورؤساء « الدوائر » ، ولكنهم يعتمدون على الصور القديمة وتعابير الأجداد ، وكثيراً ما يحولون الرثاء لهاته الشخصيات إلى مديح يعدّدون فيه فضائل هؤلاء الرجال ومزاياهم وأعمالهم وكرمهم وبطولتهم ، ولن نعرض له فقد تناوله كتاب « الرثاء » فى هذه المجموعة ، وتستطيع أن ترجع إليه لترى كيف كانوا يمدحون وهم يرثون فى أساليب تشبه الشعر العباسى ، كما رسمناه قبل قليل .

الفصل الثالث

مديح العلماء والأدباء

امتدح الشعراء شعرهم بكثير من العجب والتيه ، فصوّروه دائراً على الأيام يتنقل على كل لسان ويجلجل فى كل مكان ، وظنوا أن شعرهم وحده جدير بالتقدير تنبثق منه معانى غيرهم من الشعراء ، فهم الصوت والآخرون الصدى كما قال المتنبي ، ولم يتخلف واحد منهم عن الإدلال بشعره ؛ ولعلهم بذلك يذكرون الممدوح بعلو قدرهم على الأقدار ورفعة شعرهم على الأشعار ، فلن يقول فيه قائل أكثر مما قالوا ولن يبدع فيه أجمل مما أبدعوا ، فالنفيس يهدى إلى النفيس كما قال أبو فراس . ومن الطريف أن نعرض لأقوالهم وأن نوازن بين مدائحهم لأنفسهم ، ولكن ذلك أدخل فى باب « الفخر » ، ولهذا الفن الأدبى كتاب فى هذه المجموعة يتطرق إليه ويتناوله بالعرض والتحليل .

ونحن هنا إنما نستعرض ما قاله الشعراء فى غيرهم من الأدباء والكتاب والشعراء ، لنقف على مبلغ إعجابهم بالعلم والأدب وصناعة الكتابة وفضل القريض ، على اختلاف العصور ؛ فقد كانوا يجدون فيمن يمدحون صفوة الأمة وخلاصة المفكرين فيها ، يثنون على قوة البيان وعذوبة اللسان ويقظة الجنان ، وروعة القلم وحسن الكتابة .

فقد مدح بشار واصل بن عطاء [1] وأكثر فيه ، قبل أن يدين الشاعر بالرجعة ففضله على غيره من العلماء ، حين سمع خطبة من خطبه فقال :

أَبا حُذَيْفَةَ قد أوتيت معجبة فى خطبة بَدَهَتْ من غَيْرِ تَقْدِيرِ

(١) أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال ، المتوفى سنة ١٨١ ، كان من الأئمة البلغاء المتكلمين ، وكان يلثغ بالراء لكنه فى خطبه يتخلص منها ببراعته — انظر ابن خلكان .

وإنَّ قولاً يروق الخالدين معاً　　لمسكت مخرس عن كل تَحْبيرِ

وقال فيه كذلك يصف خطابته وطريقة لفظه ومجانبته الراء وهو ألثغ :

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا　　وحَبَّروا خطبًا ناهيك مِنْ خُطَبِ
فقام مرتجلاً تغلى بداهَتُهُ　　كمرجل القَيْنِ لمّا حَفَّ باللَّهَبِ
وجانبَ الراء لم يشعر بها أَحَدٌ　　قبل التصفح والإغراق فى الطَّلبِ

فشبه ارتجاله بغليان المرجل واللهب يحفه ، فصوّر اندفاعه وتتابع كلامه من غير توقف أو تباطؤ ، وذكر تجنبه الراء فى خطبه وأقواله ؛ وذلك يدل على دقة فى التعبير وتنبه إلى واقع الخطيب ، فى بيان فصيح .

وقال أبو تمام يمدح محمد بن عبد الملك الهاشمى لحكمته وبلاغته وتدفقه فى خطبه كذلك :

هيهات أبدى اليقين صفحته　　وبان نبع الفخار من غَرَبِهْ
لقمان صمتاً وحكمة فإذا　　قال لقطنا الياقوت من خُطَبِهْ

فهو فى بيانه يشرق باليقين ، وهو فى حكمته شبيه بلقمان ، فإذا تحدّث نثر الياقوت ، فهبّ الناس يلتقطون الدرر.. وأبو تمام كغيره من الشعراء يتخذ القدماء من يونان وغيرهم مثلاً عليا فى الفلسفة والحكمة والعقل والمنطق ، يشبه معاصريه بهؤلاء الفلاسفة ، ويتخذ طريقة التشبيه المادية كذلك فيقرن العقل بالجواهر .

وأبو تمام مدح الشاعر الكاتب محمد بن عبد الملك الزيات فقال فيه :

لَكَ القَلَمُ الأَعْلى الذى بشَبَاتِهِ　　تُصَابُ من الأَمر الكلى والمفاصلُ[1]

(١) الشباة : حد السيف .

لُعَابُ الأَفاعى القاتلات لعابُهُ وأَرْىُ الجَنَى اشتارتْه أَيد عواسِلُ[1]

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأُفرغت عليه شعاب الفكر وهى حوافلُ

أَطاعته أَطراف القنا وتقوَّضَتْ لنجواه تقويض الخيام الجحافلُ

فصوّر القلم حادًّا قاطعاً كالسيف يصيب المقاتل ، بل إنّ لعابه سام كالأفاعى يخافه الأعداء ويحبه الأصدقاء ، ولأدبه صيت بلغ مشرق الأرض ومغربها ، يفعل فعل الجيوش فى الأعداء ، يقوض الخيام وينزل بالخصوم أقسى الهزائم .

وهذا وصف بديع لأثر البيان فى نفوس السامعين ، جعله الشاعر من القوة والهول ، بحيث قارنه بالجيوش الزاحفة والجحافل الجرارة . والبحترى مدح هذا الوزير نفسه فقال فيه :

لتفنَّنتَ فى الكتابة حتَّى عطَّل الناس فن «عبد الحميد»

فى نظام من البلاغة ما شـ ـكَّ امروٌ أنه نظام فريدِ

وبديع كأَنه الزهَرُ الضَّا حك فى رونق الربيع الجديدِ

مشرق فى جوانب السمع ما يخـ ـلقه عَوْدُهُ على المستعيدِ

فهو عنده يعطل بلاغة عبد الحميد الكاتب ، وهو فريد فى أدبه يحوى من البديع فى كتابته ما يحوى الزهر الضاحك فى الربيع ، يشرق فى جوانب السمع ما يؤذيه عود أو ترديد ، وما يمل سماعه المستعيد ؛ فيه حجج عظيمة تخرس الأعداء وألفاظ كريمة كالجواهر المفردة ، وفيه معان تفوق معانى الحطيئة ولبيد بن ربيعة ، بعيد عن التعقيد قريب من المراد . وهكذا بسط جمال القول فشبهه بالعذراء فى جماله ، ووصف قوته وأثره فى النفس فجعله كالنغم الحلو تألفه الأذن

(١) الأرى : العسل — الجنى : كل ما يجنى — اشتارته : جنته وقطفته .

كما تألف الألحان المطربة السامية .

وابن الرومى مدح الكاتب عبيد الله ، فرأى فى قدرته على الكلام عجباً ، إذ يأتى بوحشيه وآنسه :

وأنت الذى يدعو الكلامَ بقُدْرَةٍ   فيأْتيه وحشىٌّ الكلام وآنِسُه

وقال فيه بقصيدة أخرى ، إنه إذا ما جرى فى حلبة عربية تخلف عن شأويه قيس بن ساعدة الأيادى وأكثم بن صيفى ، فهو ثاقب الفكر يصيب كبد الصواب فى آرائه . والمتنبى قال فى علىّ بن عامر الأنطاكى إنه يجمع العلم والحلم والحجا :

وأسْتَكْبِرُ الأَخبار قبل لقائِهِ   فلما التقينا صَغَّر الخَبَرَ الخُبْرُ

دعانى إليك العلم والحلم والحجا   وهذ الكلام النظم والنائل النثر

فاستصغر الأخبار فيه حين لقيه ، ووجده أعلى سمتاً وأعظم مقاماً لأنه على شعر جميل ونوال منثور موفور . ومدح الكاتب ابن العميد ، وكان ضليعاً فى علوم الفلسفة والنجوم فقال :

يتكسَّبُ القصبُ الضعيفُ بكفِّهِ   شَرَفاً على صمّ الرماح ومَفْخَرا

ويُبين فيما مسَّ منه بنانه   تيه المدلّ فلو مشى لتبختر

من مبلغ الأَعراب أَنى بعدها   شاهدت رسْطاليسَ والإسكندرا

وسمعتُ بطليموس دارس كتبه   متملّكاً متبدياً متحضّرا

فوصف ابن العميد بالبلاغة والفصاحة ، وقال إنه يملك القلوب بحسن لفظه فيتصرف فيها كما يريد، وجعل قلمه أشرف من الرماح يحصّل بها الشرف والفخر ، وذلك لأنه لو مسّ أى شىء عداه لظهر فيه الكبر ومشى تيهاً شرفاً بمن مسه . وهو فى حكمته كأرسطو ، وفى بأسه كالإسكندر ، جمع بين العلم والملك والحكمة ،

وكان له من فصاحة البدو وظرف الحضر وقوة التفكير ، ما يشبه به بطليموس في الحكمة والمعرفة .

وذكر المتنبي في مديحه رسائل ابن العميد فوصف بلاغتها وجزالة ألفاظها ، فجعلها تفوق كل بلاغة وتعيي كلّ فصاحة ، وهي في بأسها وقوتها كذلك تقتل الأعداء قبل السلاح ، كما قال من قبله من الشعراء . والمتنبي كغيره يتمثل الفضلاء القدماء في شخص ممدوحه فيرى كأنهم عاشوا في عقله وبعثوا في برده من جديد ، فقد كانوا يجدون المثل الأعلى في الفكر والحكمة والعقل عند قدماء اليونان — كما قلنا .

وأما الشريف الرضي فقد مدح الصاحب إسماعيل بن عباد ، فرأى قلمه الماضي أجرى من العوالي ، وأجود منها ، فهو يحوك على القرطاس برداً منمنماً :

لَكَ القَلَمُ الماضي الَّذي لَوْ قَرَنْتَهُ　　بِجَرْيِ العَوَالي كان أَجْرَى وأَجْوَدا

إذا انسلّ من عقل البنان حسبتَهُ　　يحوك على القرطاس بردًا معمَّدا[1]

وبذلك قرن قلمه بالرماح ، وشبه كتابته بالثياب الموشاة . وأما التهاميّ فقد مدح الوزير المغربيّ الداهية المشهور ، والكاتب الفحل فرأى في كتابته صفو الكلام وبين هوْلهُ وقوّته :

تقــلِّم أَقلامُك الحادثا　　ت قسرًا وتهتم نَابَ النُّوَبْ

وجعل حكمته موروثة من آبائه الفرس ، كساها الوزير لفظ قريش ، فجمع المعنى المحكم والأسلوب الرصين ، وكان في بيانه سيد الكتاب .

وقد تطوّر مديح العلماء والكتاب على العصور ، فأصبح الشعراء يعددون أنواع المعرفة التي يجيدها الممدوح ، وبذلك أسفوا إلى درجة النظامين . فقال القادري يمدح السيوطي :

(١) العقل : السجن — المعمد : الموشى على هيئة العمدان .

ومعرفة الإعراب أرفع مرتقى   فطوبى لمن يرقى إليه ويصعَدُ
وعلم المعانى والبيان كلاهما   مراق إلى علم البديع ومصعد

* * *

وزاد هذا اللون من المديح فى أواخر القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين حتى ابتذل ابتذالاً ، فأصبح الشاعر يمدح رسالة تصله أو رقعة تبلغا أو كتاباً يتصفحه ، وامتلأت الدواوين بما سموه « تقريظ الكتب » حتى لكأن المؤلفين أنفسهم يطلبون ذلك من الشاعر ، كما يطلب آل المولود شيئاً من الشعر فى مديحه يفتتحون به حياته ، أو كما يطلب المتزوجون قصيدة لزفافهم ، فكان المداحون يعمدون إلى تلبية هذه الرغبات والأمنيات ! ويضيفون إليها ما سموه بتأريخ هذه الأحداث ، فاستعملوا حروف الجمل بحيث يكون مجموع الحروف الأخيرة معادلاً لتاريخ هذه المناسبة . وليس هذا من الشعر فى شىء إنما هو نظم وتقفية ، يطلبه الطالبون فيلبى النظامون من غير شعور أو عاطفة أو إحساس بما يقولون ، فهو مصطنع متكلف مزيف ، شبيه بهذا الإنشاء الذى يكتبه المأجورون فى نميقة ترفع إلى الحاكم ، أو طلب يرسل إلى الحاكم ، أو رسالة تسطر باسم رجل أمىّ لا يقرأ ولا يكتب ؛ لا تعبر عن نفس كاتبها فى شىء . وليست تدخل فى موضوع بحثنا هنا ، لأنها ليست من الأدب ، فهو فى عرفنا يجب أن يصور نفسية الأديب وحاله حين كتب .

وقد تطرق بعض شعرائنا فى القرن العشرين إلى مديح العلماء والكتّاب والشعراء ، وخص صفحات من ديوانه بشىء من ذلك ؛ نورد أمثلة منها لبيان صورة المديح لهذا العصر . ومنهم إسماعيل صبرى ، فقد أكثر من هذا اللون ، وأسهب فيه ، وعزيز علينا أن نحصى ما قال وأن نعرضه جميعه ، فقد مدح كتاب السفر لأحمد زكى ، وكتب إلى صاحبة مجلة يثنى على همتها فى صحيفتها ، وأرسل إلى شوقى يهنئه ، وإلى محمود خاطر يشكره على مختصر القاموس فى اللغة .

وإلى حافظ عن كتابه ليالى سطيح ، وقرظ دواوين الشعراء أحمد نسيم والبارودى وفؤاد الخطيب وشوقى وحافظ ومطران وأحمد الزين ، وقال فى ديوان أحمد شوقى :

مرحباً بالقصيد يتلوه للشعـ ـر أميرٌ يُصغى له أُمراءُ

وما نجد فى أقواله هذه أو مقطعاته جمالاً أو بياناً أو سحراً ، وإنما نرى أنه شعر ينخفض عن مستوى شعره .

وحافظ إبراهيم امتدح كذلك ، ووصف الإمام محمد عبده بأنه محا فى الدين كل ضلالة ، وحلّ عقد المشكلات فى الإفتاء ، وأن الناس التفوا حوله ، كأنه ابن الخطاب أو علىّ بن أبى طالب . ومدح الشاعر محمود سامى البارودى بأنه سلب بحار الأرض درّ كنوزها ، وصير منثور الكواكب فى الدجى نظما منضداً بأسلاك معانيه ؛ وأبياته إذا ما تلاها الناس خروا لها سجداً. وامتدح شوقى فجعله بلبل الشعر الصداح ، ثم قال فى شوقى وصبرى إنهما أعادا عهد الرشيد بآيات شعرهما وملأا المشرق حكمة وبياناً . وامتدح طه حسين وأحمد لطفى السيد ومصطفى صادق الرافعى وتوفيق البكرى والمويلحى وأحمد حافظ عوض وأصحاب المقتطف. وقال فى مطران إن النثر مشى خاضعاً إليه وألقى الشعر إليه الزمام ، وعقد له اللواء على الشعراء وبايعه بالإمامة فيهم . ولم يقف مدحه على الأدباء من العرب وإنما تناول رجال الغرب فمدح شكسبير لآثاره الراقية مثل روميو وجوليت ومكبث وشيلوك وهملت ، وقال إنه مولع بتصوير الطباع ، وهنأ أمة التاميز به ، كما هنأ الفرنسيس بفيكتور هوغو .

ومدح أحمد شوقى كثيراً من العلماء والأدباء من عرب وفرنجة ، وأشاد كذلك بفضائل أدبهم وكتبهم ، وتحدّث عن نهضة العلم فى الأزهر . وكان يقول كزميله حافظ مديحاً لكل مناسبة تعرض ، فقد أخذ العرب عن الغربيين عادة الحفلات التكريمية يرسلون فيها الشعر والنثر ، لبلوغ سن معينة أو نجاح فى مشروع أو افتتاح لمصرف أو إقامة بنيان جديد أو تأسيس جامعة جديدة . لذلك أرسل مديحه فى واصف غالى وذكر ما له من أياد فى كتبه الفرنسية

ومقالاته فى التعريف بالعرب ، وقال فى أدبه إنه ذو شرك تحاذر الغيد منه ، وأنه فى نظامه كفلك الليل إذا تحلى بالزهر . وقال فى أحمد لطفى السيد مادحاً ترجمته « لكتاب الأخلاق » عن أرسطاليس ، فذكر الفيلسوف اليونانى وحكمته وأثنى على المترجم بجمعه بين لغة الإغريق ولغة تميم ، فقال :

أَرِج الرِّيَاض نَقَلْتَه ونَسَخْتَهُ نَسْخَ النَّسيم
وَسَرَيْتَ من شعب الأُلْـ ـب به إلى وادى الصَّريم[1]
فتجارت اللغتـــان للـ ـغايات فى الحسب الصميم
لغة من الإغريق قيِّـ ـمة وأخرى من تميم

وهذا من النثر المقفى لا يلحق بأذيال الشعر ولا يلم به ، ولكنه جديد على الأدب العربى فى مثل هذا الشكل وهذا الأسلوب . فخاض فيه الشعراء على أنه نى جديد وفن يتسابق فيه الشعراء والنظامون ، وينشرونه فى الصحف ويذيعونه على المنابر ، فتهتز الأكف حين إلقائه ثم تحمله الريح مع الغبار الذى ثار والعجاج الذى هبّ .

وامتدح شوقى صديقه المؤرخ إسماعيل رأفت نثراً وشعراً ، ولكنه ذهب إلى حكمة الدنيا ، وتقلب العالم وفناء الأموال والأشخاص ، معتبراً بالتاريخ ، فتشبه بأقوال قس بن ساعدة : « من عاش مات ومن مات فات » . ولشوقى قصائد فى شكسبير وفى هول كين ، وفى مدح المؤتمرات الجغرافية . وهو فى ذلك كله يقدّس العلم والعلماء . ويشيد بالمعلم ، فيرى أن الأنبياء معلمون ، وأن الله خير معلم علم بالقلم القرون الأولى ؛ وأشاد بالأخلاق الرفيعة من وراء ذلك كله ؛ وانتقل من العلم إلى صناعة التعليم ومن الأدب إلى صناعة التأليف ومن الحكمة إلى مترجمى الحكمة ، فمدح الرجال الذين يقومون بهذه الصناعات وأشاد بأعمالهم

(١) الألب : من جبال اليونان – الصريم : واد من أودية العرب .

وما تخلف أقلامهم من بيان وإرشاد وتقى وصلاح .

* * *

وخلال السنين الأخيرة قام فى العالم العربى شعور بإحياء مفاخر الأجداد والاحتفال بأعياد مولدهم ووفاتهم ، تقليداً للغرب ، وذكرى مرور ألف عام على هذه الأحداث . وكان فى الظن أن تكون رثاء خالصاً وأسفاً عميقاً لفقدهم . ولكن الرثاء انقلب إلى تكريم ومديح فدخل فى هذا الباب من أقوالهم ما نعده فى مدح العلماء والكتاب ، وأصبح لزاماً أن نعرض لهذه الحفلات بكلمة موجزة نبين فيها هذا اللون من القول . وقد أقام العرب حفلات للمتنبى والمعرى وابن سينا وغيرهم ، وأرسلوا فى هؤلاء من الشعر والنثر ما يحسن أن يكوّن صفحة جديدة لهذا الباب فامتدح الشعراء فى أبى العلاء عمق التفكير وسمو التعبير ، وعيشه المتواضع بعيداً عن لذة المرأة ، فقال فيه محمد مهدى الجواهرى وشفيق جبرى وبدوى الجبل ومحمد البزم . وقد رسم محمد البزم ثورته على الملوك ، ويقظة العروبة فى ديوانه فقال .

مَلَأْتَ خيَاشيمَ العُرُوبَة نَعْرَةً ... تنوخيّة يُزهى بها من تخامرُهْ
وسَعّرت فى أحشائها الوَقْدللّذى ... يردّ لها عرباءها لا تناظرُهْ

وترى أنهم مدحوه كأنه حىّ يسمع نشيدهم وقصيدهم ، فبرهنوا على معرفة وذكاء ، وقالوا ما لم يقله القدماء ، فأنشأوا فى شعرهم ما يقوله الناثرون فى نقد الأديب وتعريف أدبه ، وأعادوا على المعاصرين عهد عكاظ فى التنافس على غرض واحد ؛ فافتخروا بالتراث الذى يملكون من فكر قوى وأسلوب عظيم ، واستطاعوا أن يجدوا فى العصامية عند المتنبى وطموحه مجالات للقول ، اشترك فيها شعراء العراق ومصر والشام ، وكتّابهم ، والمستشرقون كذلك ؛ فعشنا كأننا فى الغرب نقيم الحفل للتكريم والدراسة ، ونصنع ما صنعوا ، فنطبع آثارهم ونحيي كتبهم ونوزعها فى المثقفين لبيان الفضائل والمزايا ، فكانت ثروة جديدة

تجمع فى كتاب واحد ما قيل فى المديح حول شاعر واحد أو كاتب واحد ، تخرجه المجامع العلمية أو جامعات عربية أو جمعيات أدبية ، وهذا جديد فى بابه لم يألفه القدماء ، أشرنا إليه إشارة عابرة لأننا رأينا أنه ألصق بباب المديح من غيره ، يحسن التوسع فيه لو كان فى الصفحات موضع لقول مفصّل أو دراسة متوسعة.

الفصل الرابع

المديح الديني

١ ـ الله جل جلاله

خلق الله الوجود فأحسن خلقه ، وأنعم على البشر فأجزل نعمه ، لذلك قامت الأديان كلها بشكره ومديحه وبيان أياديه ونعمه ؛ فأكثرت الكتب المقدسة من ذكره وبيان معجزاته فى خلقه ، وفى القرآن الكريم كثير من الآيات فى مديحه والاعتراف بجبروته وقوته وخيراته وفضله على المخلوقات جميعاً من حيوان ونبات وجماد . ولذلك سار الشعراء منذ القديم على تقديسه فرأوا فى الطبيعة سرّ جماله وفى تكوين الدنيا جمال عظمته . وبهذا كثُر المديح وتنوّع فكان حيناً مديحاً سطحيّاً ، وحيناً مديحاً عميقاً ، وأصبح فى كثير من الأحيان مديحاً صوفيّاً فاتخذ لوناً آخر من ألوان الأدب لا نعرض له فى هذا الكتاب إلاّ لماماً .

وإنما نعرض قبل كل شيء ما كان من مديح دينى خالص ، فنبسط صوراً ونماذج قليلة تلخص هذه الألوان الكثيرة التى كانت منذ فجر الدنيا العربية تصلى للإله وتدعو له ، فلن نستطيع إلى عرضها كلها ، ولكننا نقتصر على شىء منها . فقد قال حسان بن ثابت :

وَأَنْتَ إلٰه الخَلْقِ رَبِّى وَخَالِقِى ... بذلك ما عُمِّرتُ فى الناس أَشْهَدُ

تعاليتَ رَبّ الناس عن قَوْل مَنْ دعا ... سواك إلٰهاً أنت أعلى وأمجدُ

لك الخلق والنعماء والأمر كلّه ... فإياك نستهدى وإياك نَعْبدُ

فأنت ترى أنه اتخذ الألفاظ التى يرددها المؤمنون فى صلواتهم وفى عباداتهم

فاستعمل المديح دعاء لله خالقه يشهد بفضله ما عاش ، وليس سواه من خالق .

وأبو العتاهية أكثر من مديحه للإله جلّ وعلا ، فكان الزاهد المتعبد الموحد :

أيا عجباً كيف يَعْصى الإلـٰ ـه أم كيف يجحده الجاحِدُ

وفى كل شىءٍ له آية تدلّ على أنه الواحدُ

فهو يرى عظمة الإله فى كل شىء ، مما يلمح وينظر ، وهو يحمده ويعبده كما فعل حسان سواء بسواء فقال :

لك الحمد يا ذا العرش يا خير معبُودِ ويا خير مَسْئُول ويا خير مَحْمُودِ

شهدنا لك اللّهم أن لست محدثاً ولكنك المولى ولست بِمَجْحُودِ

وأنك معروف ولست بموصوف وأنك موجود ولست بمحدودِ

ويضيف فى قوله كما نرى الفكرة التى بلغت إلى أبناء عصره من نظرة جديدة إلى الإله ، وفلسفة جديدة فى الوجود ، وتعابير طرأت على هذا الضرب من المديح حتى كانت نواة للتصوف فيما بعد .

وقد كان كثير من الشعراء يشاركون فى هذا المديح الدينى ، يكبرون الجمال والكمال فى خلق الله ، كما فعل أبو نواس حين وصف النبات ، وكما فعل ابن الرومى وأبو فراس . وقد تطور هذا المديح حتى أصبح أقرب إلى النسيب حين ينشد الشعراء المتصوفة فى حب الإله ، ويرمزون إليه بالحبيب ، ويغنون فى عشقه والتقرب منه ، فيجدون فيه نوراً وأصلاً وسبباً ، ويدخلون الفلسفة والعقل والتصور فى شعرهم ، فيخرج ذلك من حدود المديح الخالص إلى فن التصوف ، وله كما قلنا كتاب خاص يبحث فيه ، تجد فيه الهيام بحب الله والاستغاثات والأدعية وغيرها مما تجده فى كتب المتصوفة ودواوينهم كابن الفارض وابن عربى والحلاج وفى شطحات هؤلاء العلماء .

وامتدح الشعراء الأنبياء كلهم فقالوا فى آدم ونوح وإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، مما تجده فى كتب الأدب ومختارات الشعر كالثعالبي وغيره . ولكن هذا المديح كان يعرض لبعض الشعراء فى بعض الأحيان لم يتتابع على العصور ، ولم يتطور كما تطور الشعر فى مديح المصطفى خاتم الأنبياء ، وفى الثناء على رسالته التى جاء بها والاعتزاز بفضله وبيان أياديه على الإسلام والإشادة بمحامده ، فقد أدمجوا مدح الرسالة الإسلامية بمديح الرسول ، ولم يفصلوا بينهما فى كثير من الأحيان ، لذلك جعلناهما فى باب واحد ، نعرض فيه ما قيل من شعر ونبسط نماذج منه على اختلاف الأزمان .

٢ ــ المدح النبوى

كان العرب يعيشون فى أطراف الأرض على نظام عجيب وأسلوب غريب ، لا تجمعهم دولة ، ولا يلمهم سلطان ولا ينظمهم قانون واحد ، يدينون طوراً بالنصرانية وحيناً بالوثنية أو اليهودية ، مشعبة آراؤهم ، مختلفة مذاهبهم ، يخضعون لكسرى أو لقيصر أو لما تحتهما من نفوذ ، ويحيون على عشائر وقبائل تتناحر وتتصادم ، يختلف إليها البؤس والتشريد والجور ، فكأنها تنتظر زعيما يجمع شملها وقائداً يفيد من شجاعتها ، وإماماً يوحد بين آرائها . فلما ظهر محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى قريش ودعا إلى وحدة العرب واتحادهم ، واجتماعهم تحت دين واحد وراية واحدة ، لينقذهم من فوضى تشل حياتهم وحروب تستنفد قواهم واستعمار يستذلهم ويسترقهم ، هزت دعوته القبائل ورؤساءها ، وبلغت الممالك المجاورة وملوكها ، فوقفت بين مصدقة ومكذبة ، حتى إذا بلغها ما كان عليه هذا الرسول من تعلق بالحق والوفاء والقناعة والتواضع ،

ومن مقدرة فى البلاغة والفصاحة والبيان والسياسة ، ومن مكانة فى الشجاعة وقيادة الجيوش ، هالها أمره وأذهلها خطره ، فانصرف بعضهم إليه وانصرف بعضهم عنه ، ووقف له شعراء يتصدون للهجوم عليه ، كما وقف شعراء فى الدفاع عنه وامتداحه .

وقد كان هذا المديح أول الأمر يقتصر على امتداح خصاله وشمائله ورسالته ، وهو حى ؛ فلما قضى انصرف الشعراء إلى الثناء عليه وتعداد صفاته والإشادة بالدين والإسلام . ونحن إنما نعد هذا من المديح لأنه يتوجه بكلامه إلى النبى كأنه موجود حى يناديه ويناجيه فيسمعه ويلبيه ، ولأنه يحقق مبادئ هذا الفن ، من تمدّح لشجاعته واستحسان لأخلاقه ومزاياه وإعجاب بصباحة وجهه ، فقد قال الصفدى فى شرح لامية العجم يصف المديح : « وما زال الشعراء يصفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ، ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح » وقد رأينا كيف مدح الشعراء ملوكهم وأمراءهم وحكامهم ، فوقفوا عند هذه الصفات ؛ ولذلك لن يضيرنا أن هذه القصائد قيلت بعد وفاته ، فهى فى مديحه . وأما ما كان من أبياتها فى الأسف لفقده والبكاء لذهابه فقد طرحناه لأنه فى الرثاء ، وله كتاب مخصوص به .

جاءنا أن النابغة الجعدى أنشأ قصيدة طويلة مدح فيها رسول الله فقال :

أتيتُ رسولَ اللهِ إذْ جَاءَ بالهُدى ويَتْلُو كتاباً كالمجرَّة نيّرا
أقيم على التّقْوَى وأرْضَى بفعلها وكنتُ من النّار المخوفة أحْذَرَا

فالرسول جاء بالهدى ودين الحق يتلو القرآن نيرا كالمجرّة فى السماء ، يأمر بالتقوى والفعل الجميل ، وقد آمن النابغة وقام بالدين خوف النار المخوفة .

وجاءنا كذلك أن الأعشى مدح الرسول بقصيدته الدالية ، يريد بها وجه النبىّ ، لكن قريشاً صرفته عن لقائه فى رواية يعرفها المتأدبون ، ليس هنا محلّ بسطها ، فانصرف عنه وبقيت القصيدة فى مديحه يقول فيها :

نَبِيٌّ يَرى ما لا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لَعَمْرِى فى البلاد وأنجدا
له صَدَقَاتٌ ما تغبُّ ونائلٌ وليس عطاء اليوم مانعَهُ غدا

وهكذا امتدح الندى والجود على عادة الجاهليين ، وبسط ما للنبى من ذكر عاطر سار فى الأغوار والنجود ، فطاف البلاد وعمّ الأقطار ، وله صدقات لا تنقطع ، وعطاء لا يفتر ، يبذل الخير لكل قاصد وطالب . وهذا مديح أشبه بأن يوجه إلى الأجواد والكرماء من رؤساء القبائل وأمراء الولايات ، ليس فيه ذكر للدين والتقوى والأخلاق . ولعلّ ذلك لأن الأعشى بعيد عن فهم الدين ومبادئه ، أو لعله لم يألف هذا اللون من المديح الدينى ولم يسمع به من قبل ، فلما حاول أن يقول نطق به على عادة الجاهليين كما رأينا فى الفصول السابقة ، لا فرق عنده بين زعيم دينى ورئيس قبيلة أو سيد فى قومه وعشيرته .

وأما كعب بن زهير فقد مدحه بقصيدة سارت على الزمان ، وقلدها الشعراء على العصور . بدأها بالنسيب الخالص ثم وصف ناقته ، وانتقل بعدها إلى الرسول يمتدح ما يحمل إلى المسلمين من قرآن جليل . ويعتذر بعد ذلك ويطلب العفو من النبى لما بدر منه ، فقال :

أُنْبِئْتُ أَنَّ رسولَ الله أَوْعَدَنِى والعَفْوُ عند رسُول الله مأمولُ
مَهْلًا هَدَاكَ الَّذى أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الـ قرآن فيها مواعيظٌ وتَفْصيلُ

فرسول الله كريم متسامح يقبل العفو والمعذرة ، وهو الذى حمل إلى المسلمين هدية كبيرة هى القرآن وفيه المواعظ البالغة وما يحتاج إليه المسلمون فى أمورهم ، فبين فضل الرسول بالإشارة إلى عظيم رسالته ، وبين كريم يده بالدلالة على واسع هديّته ، ثم انتقل إلى وصف النبيّ وهيبة مجلسه ومقامه :

لَذَاك أَهْيَبُ عِنْدِى إِذْ أُكَلِّمُهُ وقيل : إنك منسوبٌ ومَسْئُولُ[1]

---

(١) منسوب : أى مسئول عن نسبك .

من ضَيْغَمٍ مِنْ ضراء الأُسْد مخدَرُهُ ببطن «عَثَّر» غيلٌ دونه غيلُ(١)

فالرسول عنده أهيب من الأسد الخادر المفترس ، يبعث الروع والفزع في النفس ، قد أقام في الغياض فما يلقاه قلب إلا جزع وهلع ، وهكذا جعله في الشجاعة والقوة والبأس حتى ما يوازن به إلا هذا الأسد العظيم في الروعة والهيبة . وقد صدق هذا الوصف قول الإمام عليّ بن أبي طالب في نعته ، إنّ جلساءه كانوا يتحدثون منه كأن على رءوسهم الطير لا يتنازعون عنده الحديث ولا يسفون في المقال لأنهم كانوا يرعدون منه ويضطربون بحضره ، فقوله هو القول الفصل وما هو بالهزل . وكعب بن زهير بعد أن وصف الرسول قال :

إنَّ الرَّسُول لنور يستضاءُ به مُهَنَّدٌ من سُيُوف الله مَسْلُولُ

فهو سيف مطبوع من أشرف سيوف الهند وأفضلها مضاء ، لأنه سيف الله أرسله إلى العباد باسمه ، ليفصل بينهم ويحكم في أمرهم ، وسله على المشركين وسلطه عليهم ليقطع به دابر الفوضى والشرك . وهذا منتهى المديح العربيّ القديم ، إذ بسط الكرم والفضل والعفو والتسامح والبأس والشجاعة في شعر متين ملأه بالصور الضخمة والتعابير المتينة ، فجعله سيداً مطاعاً ورئيساً مهيباً ، وإماماً يحمل القرآن إلى البشر ، ويتحلى بخير الشمائل والصفات من تسامح وندى ورحابة صدر .

وحسان بن ثابت كان شاعر النبيّ حقًّا ، امتدحه لصفاته الفاضلة ورسم الدين الإسلامي رسماً موفقاً فقال :

وجبريلٌ رسولُ الله فينا ورُوحُ القُدْس لَيْسَ له كفَاءُ
وقال الله : قد أرسلتُ عبدًا يقول الحق إن نفع البلاءُ

---

(١) مخدره : مكانه — عثر : موضع — الغيل : الغيضة .

شهدتُ به فقوموا صدقوه فقلتم : لا نقوم ولا نشاءُ

وفى هذا بسط حسان ما كان من خير على يد النبيّ ، ودعا إلى تصديقه والإيمان به فرسمه نوراً يشع على العباد ورسولا هادياً إلى الرشاد ، يهدى العقول الضالة والأحلام الشاردة ، من يتبعه يرشد :

لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْه عَلَى أَهْلِ يَثْرِبٍ ركابُ هدًى حَلَّتْ عليهم بِأَسْعدِ
نبيٌّ يرى ما لا يرى النَّاسُ حَوْلَهُ ويتلو كتاب الله فى كل مَسْجدِ
وإن قال فى يوم مقالة غائب فتصديقها فى اليوم أو فى ضحى الغدِ

فهو قد حل بركة على المدينة وأهلها ، وفى ركابه الهدى والسعود ، يتلو كتاب الله فى كل مسجد ؛ وقوله لا بد سائر إلى القلوب تؤمن به وتصدق رسالته وتسير بهديه . وهذا كله مديح دينى يصف الرسالة النبوية وعظمة القرآن ، ويشيد بالإيمان ، ولكنه حين يمتدح شخص النبيّ يختار الصورة المثالية للرجل فى خُلقه وفى خَلقه ، فيراه أحسن الناس وأجملهم :

وأحْسَنُ منك لم تر قطُّ عينى وأجمل منك لم تلد النساءُ
خلقتَ مبرّأً من كل عيب كأنك قد خلقتَ كما تشاءُ

وهذا إعجاب ليس له حدّ بجمال الرسول فى خلقه ، فهو أجمل الناس طرًّا لا يستثنى منهم أحداً ، وهو أكملهم ، لا يصيبه عيب ولا يبلغه نقد ، فقد خلا من هذا وهذا ، فكان الكمال المجسم ، والخلق المصفى . وبذلك يبلغ شاعرنا ذروة المديح عند العرب القدماء ، يضيف إليهم مديحه الدينى الخالص حين يقول فى تلخيص الديانة الإسلامية :

أغَرُّ عليه للنبوة خاتمٌ منَ الله مشهودٌ يلوح ويُشْهَدُ

وَضَمَّ الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال فى الخمس المؤذن : أشهدُ
وَشَقَّ له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمودٌ وهذا محمَّدُ
نبيٌّ أتانا بعد يأس وفترة من الرسل والأَوثانُ فى الأَرض تعبدُ
فأَمْسَى سراجاً مستنيرًا وهادياً يلوح كما لاح الصقيل المهنَّدُ
وأنذرنا نارًا وبشر جنة وعلَّمنا الإسلام فالله نحْمَدُ

فالنبيّ كريم فى أفعاله مشرق فى خصاله ، عليه طابع النبوة واضح ظاهر ، وقد كرّمه الله فقرن اسمه إليه ، حين تتلى الشهادة فى الصلوات الخمس لكل يوم . وجعله منقذاً للعرب جاءهم بعد يأس من الرسل ، وفترة من الضلال بالأوثان ، فأنار لهم سبيل الحق وهداهم إلى الخير ، وبشر بالجنة وأنذر بالنار ، فبسط الإسلام وعلم الناس كيف يحمدون آلاء الله ونعمه . وما ينى حسان يبسط فضل النبى على البرية ويده على العرب ، يعدّد مكارمه وأخلاقه ، ويشبهه بالهلال فى نوره ورحمته للعباد . ويرسم ما له من فضل فى النصر والظفر فى غزوات العرب ومعاركهم وانتصاراتهم على الأعداء . وهكذا جمع حسان فى ديوانه سيرة الرسول ومفاخره ومحامده وأياديه فى السلم والحرب ، فى الدين والدنيا معاً .

وظل الشعراء يفعلون كما فعل حسان على مدى العصور ، سواء فيهم من تدين أو من لم يتدين ، وقد أنشد أبو العلاء المعرّى فى القرن الخامس فى الدين الإسلامى وفى الرسول ما يشبه قول حسان على بعد الزمان بينهما فقال :

دَعَاكم إلَى خَيْرِ الأُمور مُحَمَّدٌ وَلَيْسَ العَوَالى فى القَنَا كالسَّوَافِلِ
حَدَاكم على تعظيم من خلق الضحى وشهب الدجى من طالعات وآفلِ
وألزمكم ما ليس يعجز حمله أخا الضعف من فرض له ونوافلِ
وحث على تطهير جسم وملبس وعاقب فى قذف النساء الغوافلِ

وحرّم خمرًا خلتُ ألبابَ شربها من الطيش ألبابَ النعام الجوافلِ

فمدح الرسول برسالته ، وعدّد الفروض والنوافل ، ولخص أركان الدين من طهارة وعبادة ، وتحريم للخمر وذهاب مع الرشاد والخير . وسار على غراره كثير من الشعراء حتى كان القرن السابع للهجرة ، فوضع محمد بن سعيد البوصيرى عدداً من القصائد فى مدح الرسول وأطال فى بعضها حتى بلغ فى الهمزية ما ينيف على أربعمائة بيت ، بسط فيها حياة النبي وفضائله ومزاياه ، ومعجزاته ، ورسم مولده فى ليلة غراء ، وضعته فيها آمنة بنت وهب ، فنالت من فخار ما لم تنله النساء ، وشرفت به بنات حواء ، وأتت قومها بأفضل مخلوق ، ثم بسط النسب الشريف ، وذكر خوارق الولادة ، ووصف تداعى الإيوان وانطفاء النار ، وبسط المعجزة الكبرى فى القرآن من رقيق اللفظ ورائق المعنى ، كأنها الحبّ والنوى أعجب الزرّاع وأدهش القراء حتى حسبوا أنه سحر ، وقد قال فى شمائل النبيّ :

سَيِّدٌ ضحكه التَّبسُّمُ والمَشْ يُ الهوينى ونَوْمُه الإغْفَاءُ
مَا سِوَى خُلْقِهِ النَّسِيمُ ولا غَيْ رُ محيَّاهُ الرَّوْضة الغَنَّاءُ

فهو متئد فى مشيته ، جميل فى تبسمه ، خلقه كالنسيم رقة ، ومحياه كالروضة الغناء ائتلاقاً ، وسع العالمين حلماً وعلماً ، فهو بحر خضمّ زاخر بالمجد والخلق الرفيع ، ولذلك خضعت لدينه الأقوام وسارت إلى رايته الأمم . والقصيدة كلها على هذا النمط من المديح الدينى تصوّر الإيمان والخشوع والتقوى والورع والتشفع والرجاء ، والتعلق بأهداب الدين والفرح بالرسالة ، وهى مهداة إلى سيد الرسالة كباقة من أفكار دينية تتقدم يوم الحشر لتشفع لصاحبها يوم تجزع النفوس وتهلع القلوب .

وفى قصيدة أخرى ، ذكر سبب نظمها [1] فى مدح النبيّ فقال : إنه قد

---

(١) رواية ابن شاكر الكتبى فى تاريخه .

أصيب بفالج أقعده ، فدعا إلى الله وتشفع ، فلما كان فى نومه رأى النبىّ فمسح وجهه بيده المباركة ، وألقى عليه بردة ، فانتبه فإذا هو قد شفى من مرضه ، فنظمها وسمّاها لذلك بالبردة ، تيمناً وتبركاً . وسارت قصتها فأنشدها الناس كذلك تيمناً وتبركاً . والقصيدة تنيف على ثمانين بيتاً ، فيها صلوات على النبىّ ووقوف الأنبياء ببابه يلتمسون الرضا ويتشفعون ، وكلهم يعرف حدّه :

وكلُّهم من رسول الله ملتمسٌ ... غرفاً من البحر أو رشفاً من الدِّيَمِ
وواقفون لديه عِنْدَ حَدِّهم ... مِنْ نقطة العلم أو من شكلة الحِكَمِ

ثم يصفه كرجل وبشر فيقول :

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ ... وأنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ الله كُلِّهم
أكرِمْ بخَلْقِ نَبيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ ... بالحُسْنِ مشتمل بالبشر مُتَّسِمِ
كالزهر فى ترف والبدر فى شرف ... والبحر فى كرم والدهر فى همم
كأنّه وهو فرد فى جلالته ... فى عسكر حين تلقاه وفى حَشَم

وقد جمع البوصيرى فى هذه الأبيات كلّ ما قال القدماء فى الممدوحين ، فصوّر جمال خلقه وكرم أخلاقه فى حسن وبشر ، وشبهه بالزهر والبدر والبحر والدهر ، وصوّر هيبته كأنه فى عسكر عرمرم وفى حشم كثير . وتحدّث بعد ذلك عن معجزاته فى إيوان كسرى ونار فارس وبحيرة ساوة ، وتساقط الشهب وسجود الأشجار ، وسير الغمام وصنع الحمام ، ممّا تتناقله كتب السيرة . وتكلم عن القرآن ووصف الإسراء ، وعدّد الغزوات ، وختم بالرجاء والدعاء والتماس الشفاعة .

وقصيدة « البردة » هذه ، حفظتها الأجيال الإسلامية فى أقطارها ، ورتلتها فى مناسباتها الدينية ، وتولتها المطابع فى الشرق والغرب ، وشرحها الشارحون منذ

القرن الثامن حتى اليوم شروحاً عدة يعيينا حصرها هنا ، وشطروها وخمسوها وسبعوها . وقد عارضوها مع ذلك على مدى العصور فقلدوا معانيها الخادعة وأبياتها الرائعة ، فكانت سبباً لميلاد خزانة فى مديح الرسول عامرة بالكتب والشروح والبديعيات ، ومن أشهرها بديعية ابن حجة الحموىّ وقصائد ابن نباتة المصرىّ . وولدت قصص المولد ، تنثر هذه المعانى الدينية وتستعمل صورها ومفرداتها وتتضمن بعض أبياتها .

وهذه القصائد الدينية لا تخرج فى مجملها عما لخص الثعالبى فى كتابه « سحر البلاغة وسرّ البراعة » (١) من أقوال البلغاء فى ذكر النبىّ حتى عصره قال : « سليل أكرم نبعة ، وقريع أشرف بُقعة ، جاء بأمته من الظلمات إلى النور ، وأفاء عليهم الظل بعد الحرور ، محمد نبى الله وصفوته ، وخيرته من بريته ، مؤكد دعوته بالتأييد ، ومفرد شريعته بالتأبيد . . » إلى آخر ما أورد هذا الكاتب من صفات تعاورها الشعراء والبلغاء .

ولم يخل القرن الماضى من شعراء امتدحوا النبىّ ، فقد أنشأ محمود سامى البارودى قصيدة دينية سماها : « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » جعل فيها سيرة النبىّ من مولده إلى انتقاله ، وسار فيها نظماً كما سار ابن هشام فى كتابه عن حياة الرسول نثراً . وهى متينة التراكيب تذكرنا بشاعر الرسول حسان فى معانيها ؛ والقصيدة ميمية كذلك تتحدث عن الغار والعنكبوت والحمامتين فى خيال واسع ، ثم تقصّ علينا غزواته وحروبه والأعلام الذين اشتركوا فيها ؛ يختمها بالرجاء والشفاعة والخشوع والخضوع فيقول :

لم يترك الدهر لى ما أستعينُ به ... على التجمّل إلاّ ساعدى وفمى

هذا يحبّر مدحى فى الرسول وذا ... يتلو على الناس ما أزجيه من كلمى

فقد وضع لسانه وساعده رهناً لمديح النبىّ يتلو على الناس محامده ومزاياه

---

(١) طبعة أحمد عبيد بدمشق سنة ١٣٥٠ هـ — انظر ص ١١ .

وخصاله وشمائله ، ثم يقول :

وإنَّما هى أبيات رجوتُ بها نيل المُنى يوم تحيا بذّة الرِّمم
نثرت فيها فريد المدح فانتظمت أَحْسِنْ بمنتثر فيها ومُنْتَظِم

فيرجو كشف غمته ودفع بليته ، لعله يعلو بمديحه على هام السماك ويصبح السعد من خدمه فلا يخذل بعد اليوم ولا يضام بعد هذا القول . ومدحه بقصيدة أخرى (جيمية) افتتحها بالنسيب ، وبسط فيها الرجاء وتشفع بالدعاء بعد الستين من عمره ، فهو يرى العروج إلى مديحه وسيلة من وسائل الشفاء والصحة والنجاح وبلوغ الأمجاد ، فهدايته وحدها رفعت البشر وسمتْ بهم ، وجعلت أمته فريدة بين الأمم تعتز به وبرسالته وبعثه فى العرب :

هو النبيّ الذى لولا هدايته لكان أعلم مَنْ فى الأَرض كالهَمَج

وأنشأ أحمد شوقى فى مديح النبيّ قصائد عدة منها « الهمزية النبوية » افتتحها بذكر ما كان لمولده فى تبسم الزمان واستنارة الكائنات ، وبيت النبوة وخلائق الرسول وعلمه وكلامه ، فامتدح بالبشر الذى يلوح على محياه ، وذكر الخوارق كما ذكرها الشعراء قبله فى نار كسرى وزلزلة العروش والتيجان فقال فيه :

يا مَنْ له الأَخْلَاقُ ما تَهْوَى العُلَا مِنْها وما يتعشَّقُ الكُبَراءُ
زانتك فى الخلق العظيم شمائِلٌ يُغْرَى بهنَّ ويولع الكرماءُ

فهو يرسم أخلاقه الكريمة العظيمة فى رضاه وغضبه ، فى سكوته وفى كلامه ، فى بيته وأسرته ، ثم ينتقل إلى القرآن فيصفه ويصف الرسول :

يأَيّها الأُمىّ حسبك رتبة فى العلم أَن دانت بك العلماءُ
الذكر آية ربك الكبرى التى فيها لباغى المعجزات غناءُ

ويتطرق شوقى بعد ذلك إلى فلسفة القدماء والمحدثين وآرائهم فى الاجتماع والسياسة والفصاحة والبلاغة وفضل النبيّ عليها جميعاً وتفرده بينها بالسمو والكمال :

الإشتراكيون أَنْتَ إمامُهم لولا دَعَاوَى القَوْم والغُلَوَاءُ
دَاوَيْتَ متئدًا وداوَوْا طفرةً وأَخفُّ من بعض الدواء الداءُ
أَنْصَفْتَ أَهْلَ الفَقْرِ من أَهْلِ الغِنَى فالكلّ فى حقّ الحياة سَوَاءُ
فلوَانَّ إنْســاناً تخَيَّر ملَّةً ما اختار إلا دينك الفقراءُ

وشاعرنا وحده بين المادحين أدخل روح زماننا وملابساته ومذاهبه وآراءه فى تصوير النبيّ ، فكانت قصيدته درساً فى الموازنة بين المذاهب والشرائع والقصائد والآراء ، كأنه يتحدث بلسان العصر على أربعة عشر قرناً لم تضف كلها شيئاً جديداً إلى ما أورد هذا اليتيم الأمى ، ولم تزد عليه فيما حمل من معجزة ومن فلسفة ، وختم شوقى قصيدته بالدعاء كذلك كما ختم غيره .

ونظم فى ذكرى المولد قصيدة أخرى امتدح فيها الدين والنبيّ ونظر إليه فيها نظرة قومية ، وأشار إلى بلاغته وجهاده فقال :

وَكانَ بَيَانُهُ للْهَدْى سُبْلاً وكانَتْ خَيْلُهُ للْحَقّ غابا
عَلَّمنا بنَاءَ المَجْد حتَّى أَخَذْنا إِمْرَةَ الأرض اغتصابا

فهو يرى فى النبيّ إماماً فى الفصاحة ومثالا للخلق الرفيع وقائداً عظيما وزعيما كريماً ، قاد المسلمين إلى مرابع الظفر والنصر وامتلاك المجد والخلود والأخلاق .
ويتلفت شوقى فى قصيدة أخرى فيرى العالم الإسلامى مضطرباً قلقاً فيقول :

فقل لرسول الله يا خير مُرسل أبثك ما تدرى من الحسرات
شعوبك فى شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف فى عميق سُباتِ

فشوقى شاعر الدين فى العصر الحديث ينظر إلى المسلمين نظرة المسلم القلق

وقد هاله اضطرابهم وحيرتهم ، فرأى أنهم يحتاجون إلى زعيم ويفتقرون إلى كتاب ، وأنهم سيضطرون إلى اتباع مذهب سياسي ؛ فأشار على قومه والأمة الإسلامية أن تعود إلى زعيمها القديم ، منذ أربعة عشر قرناً تتبع مناهجه وترسم خطاه ، وتؤمن بدينه ففي ذلك الفلاح وفي اقتفائه النجاح ، وليس لداء الفوضى الذي انتشر فيهم وغلب عليهم إلا هذا الدواء الذي التمسه في خلق النبيّ وفي تعاليمه السامية المجيدة .

* * *

والشعراء في الأقطار العربية ما يزالون يرسلون المدائح في النبيّ ، ويصورون بطولته وكرمه وجمال خلقه وعظمة أخلاقه ، وسمو رسالته ، وهم كذلك يحثون قومهم على اتباع نهجه واقتفاء أثره ، ويتألمون لما هم عليه من فوضى واضطراب وتفكك ، يرون أنها شبيهة بحال العرب قبل الإسلام فلا يجدون لها خلاصاً إلا على يد زعيم يحمل رسالة الإنسانية والعدالة ، ويحطم العبودية في كل صقع ، ويقوم للشرك والظلم في كل مكان ، فيعيد للعرب مجدهم وعزهم ، ويذل أعداءهم ، ويخلصهم مما هم فيه . فترجع إليهم انتفاضتهم القديمة ، وتذكرهم الأمم من جديد بالقوة والبأس والخلود ، وتخشى بأسهم وتجعلهم في مصاف الشعوب الحرة المحترمة .

ذلك ما يردّده شعراء العرب اليوم ، يمدحون النبيّ لكل ذكرى ويستعيدون تاريخه وسيرته لكل مناسبة ، إذا ادلهمّ الخطب وكشرت النوائب ؛ ولهذا نجد في كل ديوان شعراً في النبيّ ، يشيد باسمه كما أشاد القدماء منذ حسان ، وهو كثير لا سبيل لإحصائه أو عرضه ، في الشام والعراق ومصر ، فقد أنشد أنور العطار ، وعمر أبو ريشة ، وأحمد مظهر العظمة ، وعدنان مردم قصائد كثيرة نشرتها الصحف وحملتها الدواوين إلى القراء ، فيها مديح الأمجاد ووصف المحامد والدعاء والرجاء بكشف الكرب ودفع اللثام عن الشام ، ورسم المعارك والغزوات ، وتصوير اليتيم وجهاده في جزيرة العرب لمحو الشرك ونشر التوحيد ، حتى انتصر

الوحيُ الجديد ، وفازت العقلية الجديدة ، وقامتْ للعرب دولة جديدة فى مشارق الأرض ومغاربها .

وفى مصر أنشد كثير من الشعراء فى مدح النبيّ ، وقد نظم الشاعر المصرى محمد عبد الغنى حسن ديواناً كاملا فى مديحه سمّاه « من وحى النبوة » (١) لا نعرف له مثيلا فى الأدب العربى ، فقد جعله تمجيداً للرسول فى صفحات شعرية تبين عن صفاته وسيرته وأجمل ما فى حياته ومعجزاته ، كأنه يعدها نواة لملحمة كبيرة فى الإسلام ! ولعلّ غيره فعل مثله ولم يبلغنا ما نظمه فى النبيّ .

ولن نوفى حق هؤلاء الشعراء فى عرض شعرهم ونقده وبيان ما له من ميزات جديدة فى مديح النبيّ ، لأن ذلك يطول ، وإنما نكتفى بالإلماع إليه ، والإشارة إلى كثرته ووفرته ؛ تحدثنا عنه لنبرهن أن هذا اللون من الأدب لم ينقطع فى الشعر العربىّ منذ حسان (٢) ، وأن الشعراء اتجهوا إلى الدين وإلى النبيّ كلما ضاقت بهم الدنيا وأحاطت بهم الأحداث ونالتهم المصائب والكوارث ، فعادوا إلى الماضى يفخرون ويعتزون ويستحثون الهمم للاقتباس منه ، والسير على هديه ، لعل الأمجاد تعود إلى أمتنا من جديد ، وتلفنا الرفعة من كل جانب ، وتحيط بنا المفاخر فى المستقبل .

---

(١) مكتبة الآداب – القاهرة .

(٢) الذين يريدون أن يعرفوا ما كان المديح النبوى من ثروة ضخمة كبيرة يحسن أن يعودوا إلى كتاب « المجموعة النبهانية فى المدائح النبوية » لإسماعيل النبهانى .

الفصل الخامس

المديح الديني السياسي

مديح آل البيت

١

إذا كان الشعراء قد امتدحوا الرسول لصفاته ونبوته ، فقد امتدحوا آله وبيته لمقامه ورفعته بين البيوت . وقد دفعهم الألم والحرمان فى كثير من الأحيان إلى الالتفاف حول البيت ، فأظهروا عاطفة الدين ممزوجة بعاطفة السياسة — إذا صحّ التعبير — ، واتخذوا من المديح الديني لآل البيت وسيلة سياسية للمطالبة بالخلافة والحكم ، والدعوة إلى الثأر والانتقام والتنديد بالظلم كما يصورونه حين يرون أنه انصب على هذه الأسرة وهذا البيت ؛ حتى لقد بالغ بعضهم فى هذا المديح فاستغله استغلالا واسعاً وقلبه إلى رثاء وتشيع للبيت وآله ، وأصبح هذا التعلق سبيلا إلى التفرق ، وغدا هذا الحب سبيلا إلى البغض لأن السياسة دخلته ، وما دخلت السياسة شيئاً إلا غيرت من معالمه وأفسدت من أهدافه . لذلك أنشد الشعراء فى المفاضلة بين الصحابة والأصفياء ، وقالوا فى حق الخلافة ؛ وألحوا على صور الفواجع التى ألمت بأهل البيت كمقتل الحسين وإحياء ذكراه فى مآتم تستعاد فيها ذكرى المآسى ! فجرى الشعر فى الدواوين كما جرت الدماء فى تلك المنازعات من قبل ، وظل كذلك حتى اليوم تهتز له الأسماع فى كثير من الأصقاع وينشد فى المحافل ، حتى لكأننا فى الأيام الأولى للإسلام ، نشهد الفاجعة من جديد ، ونحياها فى أسى وتظلم وبغض وحقد ، يحمل الأبناء فكرة الانتقام من أحفاد لا يملكون إلا الأسف لما وقع بين أجدادهم فى القديم .

والشعراء الذين دخلوا فى هذا اللون من المديح أصاب كثيراً منهم عنت وإكراه ومصائب ، ولكنهم لم يأبهوا لذلك كله وحسبوا أنه نضال وجهاد يقاتلون بألسنتهم ويلقون ما يلقى المجاهد فى سبيل عقيدته ومبدئه .

وقد مدح الكميت ، وسار شعره فى حبّ الرسول وأهله ، وكأنه لا يخاف أن يثير بنى أمية حين ينتقدهم ويتهمهم بأنهم نهبوا الخلافة واستلبوها ، فهى من حق الهاشميين ، وسميت قصائده بالهاشميات ، مدح فيها أخلاق بنى هاشم ، ووصف منهم كرم الشمائل وجميل الخصال ، وقال إنهم الحماة الكفاة والولاة الأساة ، وهم الأسد فى الوغى ، وهم على ذلك ساسة العرب لا يشبهون فى ذلك ساسة الأمويين من الخلفاء :

لَا كَعَبْدِ المَلِيكِ أَوْ كَوَلِيدٍ   أو سليمانَ بَعْدُ أو كَهِشَامِ

وتناول الأمويين بالهجاء ورأى أنهم لا يصلحون للخلافة ولا الحكم ، فهم يعاملون الرعية معاملة السائمة يستغلونها ويستخدمونها فى أغراضهم . والكميت ذو نفس طويل فى هاشمياته عاطفى فى مدحه لأهل البيت ، يجد فى قرابتهم من الرسول تقرباً من الخير والنعمى :

بنى هاشم رهط النبىّ فإننى   بهم ولهم أَرْضَى مرارًا وأَغْضَبُ

والرسول خير حى وميت من بنى آدم غيبته المقابر ، وخير جنين وخير مسترضع :

خير مُسْتَرضَعٍ وخير فطيم   وجنين أقرّ فى الأَرحام

وغلاماً وناشئاً ثم كهلًا   خير كهل وناشئ وغلامِ

لو فدى الحىّ ميتاً قلت نفسى   وبَنِىّ الفدا لتلك العظام

وهو يجد فيه مجد العرب وسناءهم ، وأنه أمين الله فى الناس كلهم ، ثم ينتقل

بعد مدحه إلى بكاء القتلى من أهل البيت والتفجع عليهم والتوجع لمصائبهم ، وأخصهم الحسين ، وينصرف إلى تصوير حكم الأمويين وسوئه وفساده ، ينعى عليهم الضغائن والأحقاد وينتهى إلى القول :

بأَىِّ كتابٍ أَمْ بأيّة سنة ... ترى حبّهم عارًا عَلَىَّ وتَحسَبُ

فما لىَ إلّا آلَ أَحمد شيعة ... وما لىَ إلّا مشعب الحق مَشْعَبُ

فهو لا يرى العار فى حبّ آل البيت وإنما يراه فى البغض ، فيتشفع ويعلن ذلك ويراه الحق المبين والطريق الواضحة .

والفرزدق على مديحه لخلفاء الأمويّين ، نقلت إلينا كتب الأدب أنه مدح آل البيت كذلك وتشيع ، فنسبتْ إليه قصيدة فى الإمام زين العابدين ، هذا مطلعها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبَيْتُ يَعْرِفُهُ والحلُّ والحرمُ

هذا ابن خيار عباد الله كلّهمُ ... هذا التقىّ النقىُّ الطاهر العلمُ

إذا رأته قريشٌ قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرمُ

ينمى إلى ذروة العزّ التى قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجمُ

وبعد أن يصف موطن الإمام ومراح صباه من أماكن مقدّسة ، يصف حياءه ومهابته وجمال طلعته وإشراق غرّته وعظيم كرمه وواسع إحسانه إلى الناس ، وينتقل إلى آل البيت لينشد فيهم :

مِنْ مَعْشَرٍ حبهم دينٌ وبغضهم ... كفرٌ وقربُهم منجى ومعتصَمُ

إن عُدَّ أَهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل مَنْ خير أهل الأرض قيل هُمُ

لا يستطيع جواد بعد غايتهم ... ولا يدانيهم قوم وإن كرموا

هم الغيوث إذا ما أزمة أزمتْ والأُسدُ أُسْدُ الشرى والبأْسُ محتدمُ

فجعل حبهم من الإيمان وبغضهم من الكفر ، وفى القرب منهم نجاة والبعد عنهم هلاك ، فهم أئمة أهل التقى وخير أهل الأرض قاطبة ، لا يلحق بهم جواد ولا يدانيهم قوم ، فهم السحاب فى النجدة والكرم ، وهم الأسود فى البأس والشدة ، وليس بعد هذا مطمع لمادح فى آل البيت .

وعاش دعبل فى عهد الرشيد فمدح آل البيت ، وعجب كذلك لقتل الأحرار من بنى هاشم ، وعاب على العباسيين أن يعاملوا العرب كما عاملوا الروم والخزر ، فقال :

قَتْلٌ وَأَسْرٌ وتحريقٌ ومَنْهَبَةٌ فعل الغزاة بأَرض الرُّوم والخَزَر
أرى أُميّــة معذورين إن قتلوا ولا أَرى لبنى العباس من عُذُر

فإن كان من عذر لبنى أمية فليس ثمة عذر لبنى العباس . ورسم دعبل مقتل الحسين كما وصف غيره ، وعدّد فواجع أهل البيت ، وصوّر مدارسهم قد خلت من التلاوة ، ومنازل وحيهم أصبحت مقفرة العرصات :

مَدَارِسُ آياتٍ خَلَتْ من تلاوة ومنزل وحى مقفر العَرَصاتِ

وهو يعدّد هذه المنازل ويذكر هذه القبور فيعرض لمرابع العزّ ومواطن الألم والفجيعة ، ويبكى ويستبكى ، ثم يعود إلى أهل البيت ليظهر حبه وغرامه بهم :

مَلَامَكَ فى أهل النبىّ فإنهم أَحبّاىَ ما عاشوا وأهل ثقاتى
بنفسىَ أنتم من كهول وفتية لفكّ عناة أو لحمل ديات

ويمدحهم كما مدح الجاهليون رجالاتهم فيرى فيهم فك العناة وحمل الديات ، وأظهر حبهم فى عهد يُعاقب فيه المحبّ ويكافأ الشانئ .

٢

ولما كان القرن الرابع الهجرى واستولى الحمدانيون على الجزيرة وحلب ، جعلوا من هذه الربوع منابر لمدح أهل البيت ومنائر للمطالبة بالثأر ، فهم شيعة كلهم ، وشعراؤهم حشدوا قواهم لمدح الشيعة والتفجع لماضيهم ولما حلّ بهم ، فيهم كشاجم والسرىّ الرفاء ، والوأواء الدمشقى ، وأبو فراس الحمدانى ، والصنوبرى ، والخالديان ، ودواوينهم تغص بهذا المدح وتمتلئ بهجاء العباسيين ، تردّ على شعرائهم وتناقض قصائدهم ، ثم تنشئ في مدح الأئمة والاستشفاع بهم عند الله ، فيقول شاعرهم أبو فراس الحمدانى [١] :

شافعى أحمد النبىّ ومولا ... ىَ علىٌّ والبنت والسِّبطانِ

وعلىٌّ وباقر العلم الصا ... دق ثم الأَمين ذو التبيان

وعلىٌّ محمد بن علىّ ... وعلىّ والعسكرى الدانى

والإمام المهدىّ فى يوم لا ينـ ... ـفع إلا غفران ذى الغفران

وهذا الشعر شبيه بالنظم التاريخى ، لما حشر فيه صاحبه من أسماء وأعلام كأنه أراده للشيعة صلاة روحية ، يردّدون ما قال ، ويترحمون على الأئمة ، ويتفجعون لما أصاب القتلى . وهو فى ديوانه يوازن بين آل البيت وبين العباسيين ، ويورد فضائل الأولين وما يأخذه على الآخرين :

لا يَغْضَبُون لِغَيْر الله إنْ غَضِبُوا ... ولا يُضيعون حُكْم الله إن حَكَمُوا

تبدو التلاوة من أبياتهم أبدًا ... وفى بيوتكم الأَوتار والنغمُ

---

(١) انظر فى معرفة الأئمة وبيان أسمائهم وأنسابهم ، ديوان أبى فراس طبعة بيروت ١٩٤٤

فيصف تقوى آل البيت وهو العباسيين ، ويأخذ عليهم أنهم لم يكفوا الشتم عن بنات رسول الله ، ولم يعترفوا بالبيعة ولم ينحرفوا عن الغدر ، فقد كان عليّ أولى الخلفاء بها بعد النبيّ . وهذا كله شعر سياسى فى لغة عصرنا اليوم ، لكنه قبليّ عصبيّ لعصره ، يشبه عصبية الجاهلية وحميتها فى القربى والدم ووشائج الرحم ، وهو كذلك يقول :

أهوى الذى يهوى النبي وآله   أبدًا وأشنأ كل من يشناهُ

والصنوبريّ من أطول الشعراء الحمدانيين نفساً فى مدح أهل البيت ، فهو يخصهم بقصائد طويلة جدًّا ، يزور فيها قبور يثرب يحيي جدث الرسول ووصيه ، ويمدحه مدحاً عظيما :

ومن مضى خاتم الرسـ   ـل والسراج المنيرا
ومن به بشَّر الركـ   ـب من قريش بحيرا

ثم ينتقل إلى حمزة والعباس ، ويذكر دور « الغرى » وقبور العراق ، ويفيض فى مقتل الحسين ، ويصف كربلاء والفواجع والمآسى ؛ ولن نسهب فى عرض شعره فهو شبيه بالحمدانيين فى هذا . وإنما ننتقل إلى الشريف الرضى ، لنرى عنده مدح آل البيت ، فى شعر فيه فخر واعتزاز وعصبية ، وذكر للقبور والأماكن كالطف والغرىّ وطوس وسامرّا وبغداد وغيرها ، يقول :

قُبُور تنطف العبراتُ فيها   كما نطف الصَّبيرُ على الرَّوَابى(١)
فلو بخل السَّحَابُ على ثَراها   لَذَابَتْ فَوْقَها قطعُ السَّرابِ

وفيها امتداح للنبيّ وفاطمة والسبطين والوصىّ كما فعل الصنوبرى وأبو فراس سواء بسواء . وهو يتوجع للفواجع ويذم بنى أمية ، ويذكر الثأر والانتقام ويندّد

(١) الصبير : السحاب المتكاثف .

بالقاتلين فقد خفروا ذمة النبيّ وأساءوا إلى آل بيته :

بَاعَتْ بَصَائِرَ دِينِها بِضَلَالِها   وشَرَتْ مَعَاطِبَ غيّها برشادها
جَعَلَتْ رسول الله من خصمائها   فلبئس ما ذخرت ليوم مَعَادها

وهكذا حوّل الشعراء مديح آل البيت إلى قصائد باكية حزينة تشبه الرثاء والتفجع وتحث على الانتقام والثأر ، فأعادوا سيرة الجاهلية فى العصبية والقبلية ، وامتدحوا فضائل القتلى .

ومهيار الديلمى لا يقل عن زملائه فى هذا الميدان، فى إثارة العصبية ، حين مديح آل البيت ، فقد غلب على شعره الرثاء والبكاء كذلك ، وتوجع ، وجعل القضية دينية صرفة :

هذى قضايا رسول الله مهملةٌ   غدرًا وشَمْلُ رسول الله مُنْصَدِع

وقد تجمع من هذه القصائد فى آل البيت كتب كثيرة ومجاميع عديدة ، عمل القدماء على جمعها وتبويبها كما فعل اليمانى ، حين ألف كتابه الكبير « نسمة السحر فى ذكر من تشيع وشعر » . وعمل المحدثون على دراسة هذا الأدب وبسط تاريخه ، وعرض ما وقع للشيعة ، فسالت فى كثير من أصقاع العرب، كلبنان والعراق كتب متعددة تثير الخطب وتكمل الطريق . ومن المعاصرين شعراء يسيرون فى مديح آل البيت سيرة سياسية يمدحون من يتولى منهم الحكم أو يمسك بزمام الملك ، ويخلصون لهم إخلاصاً كبيراً يشبه المطالبة بحكم هذه السلالة وعودتها إلى دفة الخلافة والإمارة . وقد عقد الكتاب فى هذا الأدب فصولا كثيرة تنظر إليه من ناحية السياسة ، وننظر إليه هنا من ناحية الدين والسياسة جميعاً ، لا نفرّق بينهما ، يعتمد أحدهما على الآخر فى حججه ودلائله، حتى ما يمكن أن نفصل بينهما .

الفصل السادس

المديح السياسي

٢

بسطنا فى الأبواب السابقة ما كان من مدح للملوك والخلفاء والأمراء والوزراء والقواد والوجهاء ، وعرضنا لمديح العلماء والكتاب ، وألممنا بطرف من مديح النبيّ ، ونظرنا من خلال الشعر إلى النواحي الأدبية فى المديح من وصف للشجاعة والكرم وأصالة النسب وقوة العارضة وشدة الذكاء ، وبسطة العلم والجاه ، ووقفنا عند الحدود الفنية فى ذلك ، لم نعرض لما وراءها من قصد سياسى إلاّ حين كتبنا فى مديح آل البيت ، فرأينا فيه أهدافاً عصبية وقبلية ودولية — كما نقول اليوم — إلى جانب العاطفة الدينية التى اعتمد عليها هذا اللون من المديح كأساس للمطالبة وعنوان للحجة .

ونحن حين ننظر فى الأبواب الأخرى من الناحية السياسية الصرفة نجد فيها كما وجدنا فى مديح آل البيت دوافع خفية وظاهرة إلى عمل سياسى وغرض دولى . فالنابغة حين امتدح مليكه النعمان بن المنذر انتصر لدولة دون دولة ومملكة دون مملكة ؛ لأن الغساسنة كانوا أعداء المناذرة ، ومديح فريق خصم يعدّ فى عرف السياسيين اليوم خصومة للفريق الآخر ، وهو انحياز لمعسكر دون معسكر ، كما تقول الصحافة المعاصرة. وكذلك مديح قبيلة دون قبيلة حين تشتد الخصومة بينهما وتستعر الحروب ، وتقدم الأيام شواهد على هذه الحزازات والأحقاد والضغائن ، وتأييد القبيلة تشجيع للثورة على أخصامهم وبعث للحرب والانتقام . فإذا عرفنا أن أيام العرب تجاوز الألف عدداً كما قال بعض

المؤرخين — أدركنا أىّ شعر فى المديح السياسى سفح الشعراء وأسالوا فى قوافى الدواوين ، يردّده أهل القبيلة فى السلم تهيئة للحرب وفخراً بالنصر وبعثاً للهمم الخاملة ، فالزعيم فى القبيلة كالملك فى الدولة لأنه سيد قومه وحاكمهم ، وإليه المعاد فى أمور السياسة والحكم ، وهو وحده صاحب الكلمة النافذة . ومصلحته هى مصلحة القبيلة ، ولا شأن للفرد إذا ذكرت الأسرة والعشيرة والدولة . وحدود القبيلة المؤقتة هى حدود الوطن ، ترسمها رماحهم وتكسبها نصالهم وتبنيها مواضيهم ، والدفاع عنها دفاع عن الوطن .

ولما كان الإسلام ، وقف حسان يمدح النبىّ فى دينه الجديد وسياسته الجديدة لإدارة الدولة ، ووقف خصومه يقاتلون سياسيًّا فى شعرهم ويردون على شعراء حزب النبىّ — إذا صحت التسمية — لذلك كان مديحه من جانب سياسى منصبًّا على حقه فى زعامة الأمة وإنقاذها من الفوضى والكفر ، والسير بها إلى التنظيم والإيمان ، فهو يشيد بالفتوح الإسلامية ويمتدح الدولة الجديدة القائمة لانتصاراتها فى فتح مكة وفى بدر ، أو يرد على خصومه من الشعراء السياسيين الذين انتصروا لحزبهم كذلك . وقد وقعت بعد انتقال الرسول قضية المبايعة فدعا الشعراء لمرشحيهم فى الحكم كما نقول اليوم ، وامتدح كلّ منهم صاحبه ، وراح يدلى بحججه فى حقه بالخلافة .

وقد حبس الحطيئة فأرسل يستعطف عمر بن الخطاب قائلا :

أَنتَ الإمام الذى مِن بَعْد صَاحِبِهِ ... أَلقى إليك مقاليد النُّهَى البَشَرُ

لم يؤثروك بها إذ قدّموك لها ... لكن لأَنفسهم كانت بك الأَثَرُ

فهو يرى أن البشر ألقت إليه مقاليد النهى بعد أبى بكر ، وآثروه بها ، لأنه أنفع المسلمين وأجدرهم وأحقهم ، فخاض بشعر بسيط فى خضمّ النزاع السياسى والحزبية المستعرة آنذاك ، وكأنه فضّ الخلاف وقضى فيه بقوله هذا . وظلت هذه الخصومة فى الحجاز حتى انتقدت إلى العرق والشام بعد مقتل عثمان ، فقال

كعب بن جعيل يصف الحال :

أَرَى الشَّامَ تَكْرَهُ مُلْكَ العِرَاق   وأَهْلُ العِرَاق لَهُ كارهُونا
وكلٌّ لصــاحبه مُبْغضٌ   يرى كلّ ما كان من ذاك دينا
وقالوا : علىٌّ إمام لنا   فقلنا : رضينا ابن هند رضينا !

وظهر بعد هذا شعراء من الخوارج كرهوا من علىّ قبول التحكيم بينه وبين معاوية ، فدخلوا من باب السياسة الواسع وألحوا على هذا المعنى ، ولكنهم لم يمدحوا فئة بعينها ، وإنما جاهدوا فى إبداء آرائهم السياسية ، وأقلقوا أمن الدولة الأموية كما أقلقها الشيعة سواء بسواء . ولكن الشيعة كانت تمدح جانباً وتذم جانباً ، وتميل دائماً إلى بيان موضوع الوراثة وحقّ علىّ فى الخلافة ، كما قال الكميت :

يقولون : لم يورث وَلولا تراثه   لقد شركت فيه بَكيلُ وأَرحبُ

ومدح كثير عزّة الأئمة من قريش وصارحنا بمذهبه السياسى فقال :

ألا إنَّ الأئمة مِنْ قُرَيْشٍ   ولاة الحقّ أَربعَةٌ سَوَاءُ
علىٌّ والثلاثة من بنيه   هم الأَسباط ليس لهم خفاءُ

وهكذا بسط أسماء المرشحين للولاية والخلافة ، وطبعىّ أن نجد فى الأحزاب الأخرى شعراء يمدحون مرشحيهم كذلك ، منهم زبيرىّ الهوى كابن قيس الرقيات حين يمدح مصعب بن الزبير فيقول :

إنَّما مصْعَبٌ شهابٌ من اللَّـ   ـهِ تَجَلَّتْ عن وجهه الظَّلْماءُ
مُلكُهُ مُلْكُ قوَّةٍ ليس فيه   جبروتٌ ولا بهِ كبرياءُ

فيدعو إلى ملكه وخلافته ، ويرشحه للمنصب السامى الرفيع ، لأنه قوة من

الله ، ولأنه شهاب منير فيه جبروت وليس عنده كبرياء ، وهذا بيان حزبيّ موجز فى حكم قليل ، ينصر مصعباً ويمهد له الحكم والرئاسة .

ومن الأحزاب كذلك سفيانيون يذهبون إلى حكم معاوية وأسرته بعد أن قُتل عثمان ، وأصبح أهل بيته اولياء دمه ، وعلى رأسهم معاوية ، فهم يقومون بأعباء الحكم ، ينصرهم ماض فى قريش عريق ، وهم من أسرة النبيّ فهم وارثوه ، لذلك قام الشعراء بمدحهم ودعمهم والدعوة لهم ، كأن يقول أعشى ربيعة فى ذم الزبيريين ومدح الأمويين :

إن الخلافة فيكُمُ لا فيهمُ ما زلتمُ أركانها وثمالها

ويقول النابغة الشيبانى فى عبد الملك حين هم بخلع أخيه وتولية العهد لابنه الوليد :

أمَّا قُرَيْشٌ فأنت وارِثُها تكفُّ مِنْ غَرْبِهم إذا طمحوا
لابنك أولى بملك والده ونجمُ مَنْ قد عصاك مطرحُ

ونلاحظ البساطة فى عرض الأسباب والحجج والوثائق والأدلة لدعم الخلافة والوراثة والولاية ، فهى لا تعدو أن تكون تقريراً لا تعليلا فى غالب الشعر ، كما يقول أرباب السياسة ، ولكنهم شعراء لم يحذقوا هذا الفن ، فهم قريبو العهد به ، يظنون أن قولهم حجة ، وأن شعرهم بيان سياسى فيدلون به وهم على مثل الثقة بأن السامع معهم فى التصديق والتحقيق . والشعراء الذين مدحوا سياسيًّا فى عهد بنى أمية كثر ، منهم عدىّ بن الرقاع وهو من دمشق ، وأبو صخر الهذلى وعبد الله بن الزبير الأسدى ، وغيرهم ، تجد فى شعرهم حلم معاوية فى الحكم ، وحزم عبد الملك ، وقسوة هشام وعبث يزيد بن عبد الملك . يعرضون لطريقة حكمهم ، ويبسطون سلوك الخلفاء خلال ذلك كله ؛ فيقول الفرزدق فى عمر ابن عبد العزيز :

لم يُلْهِهِ عُمْرَهُ عين يُفجّرها ... ولا النخيل ولا ركض البراذين

ويصفه بأنه يختلف عن غيره من الخلفاء فى جدّه وتقواه ، وحرصه على أموال الرعية ، وبسطه العدل والقسطاس بين المسلمين . وهذه حجة قوية يدلى بها الفرزدق فى بيان سيرة سياسية لخليفة أموىّ .

وقد دخل هؤلاء الشعراء كذلك فيما كان بين قيس وتغلب منذ القديم من عصبية وتنافس فى توجيه السياسة . وكان الأخطل أشدهم براعة فى إثارة النعرة وإيقاظ الفتنة وبعث الدفين من العواطف ، فدارت بينه وبين جرير قصائد كثيرة حول هذا الموضوع ، فكان جرير لسان قيس ، ووقف الأخطل مع تغلب بنى قومه . وقام الفرزدق بنصيبه فى هذه المعركة السياسية ، فعاشت الإقليمية — كما نقول اليوم — واستيقظت العصبية الجاهلية ، وعاد الناس القهقرى يسمعون شعراً كان يسمعه أجدادهم من قبل ، وأصبح الشعر فى خدمة الأمير والقائد والوالى على مختلف الأقاليم الإسلامية . ذلك لأنهم كانوا يمثلون الخليفة فى حكمه ، وينطقون باسمه فى سياسته . وقد رأينا مديحاً لهؤلاء فى أبواب سابقة ، كالحجاج وابن الأشعث ويزيد بن المهلب وقتيبة بن مسلم، حتى إن بعض الشعراء لزم والياً أو قائداً أو أميراً ، كما يلزم خليفة أو ملكاً ، فازداد بذلك المديح السياسى وتشعب ، وكثرت أغراضه وتنوعت أساليبه ، وقيل فى هؤلاء من المديح الإدارى والسياسى ما لو قيل فى الحكام المعاصرين لأثابوا عليه الصحابة والأنصار ، فقد قال جرير فى الحجاج :

من سَدَّ مُطّلع النفاق عليكم ... أم من يصول كصولة الحجّاج

أم من يغار على النساء حفيظة ... إذ لا يثقن بغيرة الأزواجِ

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ... ماضى البصيرة واضح المنهاج

مَنَع الرُّشا وأراكم سبل الهدى ... واللّصّ نكّله عن الإدلاجِ

وهكذا صوّر الحجاج خصما للنفاق السياسي ، صائلا في حكمه ، قد ألزم النساء لعهده خطة الحفاظ على الأسرة والشرف في البيت ، فكان واضحاً في منهاجه يمنع الرشوة ، ويحول دون السرقة واللصوصية . فمن من الحكام لا يطمح اليوم إلى مثل هذه الرتبة وإلى مثل هذا المديح ؟ !

٢

وظل الشعراء العباسيون على هذا الغرار يمتدحون الحاكم لسياسته ، فكان مسلم ابن الوليد يثنى على القواد والأمراء لحنكتهم في تسيير الأمور بحنكة ودهاء ، وعملهم في بسط الأمن ، وجباية المال ؛ فقال في منصور بن يزيد وآله :

كانوا الملوك بنى الملوك وراثةً والملك فيهم لا يزال يدورُ
أَعطاهم ذلّ المقادة قيصرٌ وجبى إليهم خرجه سابورُ

وأبو العتاهية مثله في ذلك يرى في ممدوحه جدارة بالحكم ، ويراه وحده أهلا للخلافة فيقول في المهدىّ :

فلم تك تصلح إلاَّ له ولم يك يصلُحُ إلَّا لها
ولو رامها أَحدٌ غيره لزلزلت الأَرض زلزالها

والشعراء بعده كانوا يرون في الأمراء والخلفاء أحق الناس بالحكم والإمارة لما يبذلون من عدل وما ينفقون من شجاعة وذكاء في تسيير دفة الأعمال ، كما فعل أبو تمام والبحترى وغيرهما . والمتنبى امتدح حاكم حلب ثم رحل عنه إلى خصمه حاكم مصر فوجد لكل منهما دليلا على جدارته في الحكم وموضعه من السلطان . وقد قال البحترى في إسحق بن إبراهيم :

الله أيدكم وأعلى ذكركم بالنصر يقرأ في السماء ويكتبُ

ولأنتم عُدد الخلافة إن غدا ... أو راح منها مجلسٌ أو موكبُ
والسابقون إلى أوائل دعوة ... يرضى لها ربّ السماء ويغضبُ

فرأى أن الله يؤيد هذه السلالة ويُعلى ذكرها ، ويجعلها أهلا للخلافة ، وبذلك ينصر الدعوة ويرضى لأصحابها ويغضب لأعدائها . وابن هانئ الأندلسى وجد لبنى هاشم حقًّا فى الحكم على مئات السنين :

بنى هاشمٍ قد أنجز الله وعده ... وأَطْلَعَ فيكم شمسه وهى دالكُ[1]
ونادت بشارات الحسين كتائبٌ ... تمطى سراعاً فى قناها المعاركُ

فأعاد سيرة الحسين والثأر له ، ودعا لهذه الفئة السياسية أن تظل فى الخلافة وأن يظل حكمها مبسوطاً على الناس ، كذلك ثابر الشعراء فى عصبيتهم القبلية ينزعون إليها كلما لمسوا السياسة أو أرسلوا شعرهم فى الملوك والحكام سواء فى الشام أو فى مصر والعراق ، وكان هذا الشعر يثور وينتصر حين تكثر الدويلات ويسود الانتقام ويغلب التنافر والتنافس فى الحكم ، طوراً بين حلب ودمشق وبغداد وفارس ، وطوراً بين مصر والشام أو بين الشيعة والسنة على اختلاف العصور .

* * *

فلما كان العصر الحديث وقامت الآستانة ، نشأ فى المديح السياسى ميل إلى العروبة طوراً وإلى الإسلام أطواراً . فسار شوقى فى ركاب الآستانة وامتدح الخلفاء العثمانيين لعلهم يمدون رواقهم على الإسلام ويرسلون رايتهم فى نصره والدعوة له . وقد ضربنا الأمثال لهذا الشعر يمتدح به شوقى عبد الحميد حيناً والخديو حيناً آخر ، وينتصر لمصطفى كمال ثم يمتدح رجالات مصر ممن كانوا يسعون فى استقلالها وتفردها بالحكم — كما رأينا فى فصل سابق.

ولما كانت الحرب العالمية الأولى ، وانفصلت الدول العربية عن الآستانة ،

(١) دالك . مصفر ، غائب زال عن كبد السماء .

قام الشعراء بمديح الحكام والملوك ونصر سياستهم فى بغداد حيناً ، وفى القاهرة حيناً آخر ، وفى دمشق أحياناً . وقيل فى فيصل الأول وحكمه ما قيل من شعر يعيد إلى الذكرى عصبية العرب وخلافة الإسلام . وقيل فى ملوك مصر أكثر من هذا ، حتى طمع آخرهم فى خلافة المسلمين وجمعهم إلى ركابه . ينظرون إلى عرشه فى القاهرة . وقال الشعراء يمدحونه لهذا و يشهدون له بنسب قرشى هبط إليه على ألسنة الوحى ! ولكننا لن نبسط القول فيه فقد ذهب مع التاريخ وغابت الأشباح . وقد قامت ثورات فى العالم العربى وحكم رجال خلالها فتابعهم مديح الشعراء لعظيم سياستهم وجميل حكمهم والإشادة بديمقراطيتهم ، وتوزيعهم العدالة بين الشعب ، وحربهم ضد الأدواء الثلاثة من جهل وفقر ومرض . وانقلب المديح السياسى إلى قواعد غربية . فيها عكوف على حقوق الفرد ، وبيان لعلاقة الحاكم بالمحكوم ، ودستورية الحكومة .

ولم يقف المدح السياسى خلال هذه الحقبة الماضية على الملوك والحكام والخلفاء ، وإنما انتصر للقادة السياسيين والزعماء المخلصين ؛ فامتدح سعد زغلول فى مصر وإبراهيم هنانو فى الشام ، وامتدح غيرهما من الزعماء والأنصار ، وما نزال نسمع فى المذياع ونقرأ فى الصحف مديحاً للساسة فيه إشادة بمزاياهم لتعلقهم بأهداب الوطن والدفاع عن حماه والذود عن حياضه ضد كل مستعمر غاصب ، حتى قامت فى السنين الأخيرة مدائح لأحزاب معينة تقوم ضد المشروعات أو الأحلاف ، وأصبحنا نعيش كما يعيش الغرب على شعر سياسى فى المديح ، يهيئ للانتخابات ، ويمهد للزعامات ، ويوطئ الأكناف لتسلم الحكم . والأمثلة على هذا متوافرة تقوم بيننا صباح مساء ، نقرؤها ونمرّ بها عابرين ، وهى أجدر أن تجمع وأن تبوّب لأنها تعيد ذكرى ماضينا ، وذكرى عصبياتنا القديمة بين بكر وتغلب ، ويمانية ومضرية وسفيانية ، فهى تعيش بالألفاظ القديمة وتنظم بالأفكار الجديدة ، وتكتب بأسلوب العصر السياسى ، فتسير فى مواكب القرن العشرين ، وتقلد الغرب فى الدعاوة للأحزاب وأصحابها وزعمائها .

الفصل السابع

مديح الأوطان والبلدان

١ ـ الأوطان :

أحب العربي الأرض التي عاش فيها سواء أكانت قاحلة أم منبتة ، جميلة أم غليظة ، لأنها رافقت عهداً من عهود حياته وعرفت شطراً من أيام عمره ، فحن إليها وهو بعيد واشتاقها وهو غريب ، فأنشد فيها شعره حنيناً وحرقة ، وامتدح فيها الخير والبركة والنعيم لا لأنها خير وبركة ونعيم حقًّا ، بل لأنها قطعة من عمره فحسب ! وفي الشعر العربي كثير من هذا المديح بدأ في الجاهلية ولم ينته إلى اليوم . وإنما تطورت صفحاته وتغيرت نظرة الشاعر فيه ، لكنها لم تخرج عن الحنين والحب والمدح والدفاع عن الأرض .

ولعلنا حين نستمع إلى أحمد بن يحيى ينشدنا أحب بلاد الله إليه ، نتساءل عن هذه البلاد ، نريد أن نعرف ما منعج وما دار سلمى ؟ :

أحبّ بلاد الله ما بين منعج　　　إلى دار سلمى أن يصُوب سحابها

بلاد بهـا حلّ الشباب تمائمي　　　وأول أرض مَسّ جلدي ترابها

فنعرف أن أحب أرض إليه تلك التي مس ترابها جلده أول ما مسّ ؛ فهي وطنه وهي موضع حبه وتقديسه. وهو في ذلك لا يخرج عن التعريف البسيط الصحيح للوطن ، لا تدخله فلسفة ولا منطق ، ولا تحده قوانين ، ولا تفرضه حقوق أو واجبات . وابن الرومي يزيدنا تعريفاً بوطنه وبلده حين يقول :

بَلَدٌ صَحِبْتُ به الشَّبيبةَ والصِّبَا　　　ولَبِسْتُ ثوب العيش وهو جديدُ

فإذا تمثل فى الضمير رأيتـــه وعليه أفنان الشباب تميدُ

وذلك تصوير جميل للوطن ، يتمثله الشاعر فى الضمير ، فيرى الشباب وما إلى الشباب من عيش نضير وحياة شابة . ويقول كذلك فى أسباب حبّ الوطن :

وَحَبَّبَ أوطانَ الرِّجال إليهمُ مآربُ قَضَّاها الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهمُ عهود الصبى فيها فحنُّوا لذلكا

فالوطن مرتع الشباب وموطن اللذائذ الأولى ، ومحل الحبّ الأول يألفه الفتى أبد الدهر ، لا ينقلب عنه ولا يتحول ، وهم يزيدون على وصف الوطن ما فيه من شجر وعضاه ، ونبات ومياه ، جميلة كانت أم ضئيلة . فالشاعر يقول :

تمتَّع من شميم عرار نجد فَمَا بَعْد العشية من عَرارِ

فالعرار هذا النبت الطيب يملأ أنف الشاعر ورئتيه وهو فى نظره أضخم من النخيل على شطآن النيل ، فالديار محبوبة لأنها مألف الأحبة وموطن الأصدقاء وموضع الذكريات . ولا يكون الحب للربوع إعجاباً بالحجر أو الصخر والشجر والماء والزهر والنور والظل والشعاع ، وإنما يكون لما ينعكس منها فى النفس ، وينسكب فى الروح ، ويجرى مجارى الدم ، فتتجسم كما يريد الخيال ، وتسمو كما يلى الحب ، وهذا هو الوطن ، بقربه النعيم ، وفى بعده الجحيم ، كما يقول الشاعر :

إذَا دَنَتِ المَنَازِلُ زَادَ شَوْقى ولا سيمَا إذا دَنَت الخِيَامُ
فلمح العَيْن دون الحىّ شهْرٌ ورجعُ الطَّرف دون السَّيْر عام

والذين يحبون الوطن ينصرفون عنه وفى الكبد تصدّع . ويقبلون إليه وفى النفس شفاء .

وقد تبدلت نظرة العربى إلى تعريف الوطن على مدى الأجيال . ففى القرن الثالث . قال أبو تمام يشرح حبه للوطن العربى فيقول :

بالشّام قومى وبغداد الهوى وأنا بالرقمتين وبالفسطاط إخوانى

وما أظنُّ النّوى ترضى بما صَنَعتْ حتّى تبلغنى أقصى خُرَاسانِ

ونحن اليوم ننظر بعينى أبى تمام إلى هذا الوطن العربى الكبير من أقصى بغداد إلى الفسطاط ومن الرقمتين إلى الشام ، ونحسد الجاهلى فى الدفاع عن خيامه ، يثير الحرب عواناً من أجلها . ويشتد فى النخوة والاستماتة فى سبيلها ، فكم سالت دماء لحماية الحمى والذياد عن الحياض ، وكم قامت حروب على الحدود للدفاع عن أرض الوطن . وكم اشتاق الشعراء ديارهم وبكوا لبعدهم عن أرض الوطن ، كما فعل أبو فراس فى القدماء، وشوقى فى المحدثين . فقد تغرّب كل منهما مضطراً ، وأنشد كل منهما فى حب الوطن والحنين إليه وامتداحه . وشوقى قضى مدة النفى فى الأندلس . فأرسل يصف وطنه فى قصيدة جميلة :

وطنى لو شغلتُ بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نَفْسى

وهفا بالفؤاد فى سلسبيل ظمأ للسواد من (عين شمس)

شهد الله لم يغب عن جفونى شخصه ساعة ولم يخل حسّى

فاشتغل بوطنه أى شغل ، لا تلهيه عنه جنان النعيم . وقد هفا إلى منزله بعين شمس فلم يغب عن جفونه ساعة ، ولم يخل من التفكير فيه وتلمس الخيال فى الوصول إليه . ولا يقلّ عنه محمود البارودى فى مدح مصر وهو بمنفاه بجزيرة (سيلان) حين يتنسم الهواء فيرى فيه نسيم مصر :

ونسمة كشميم الخلد قد حَمَلت ريّا الأزاهير من ميث وأجْرَاع[1]

(١) الميث : جمع ميثاء وهى الأرض اللينة ، والأجراع : الأرض السهلة .

يا هَلْ أراني بذاك الحيّ مجتمعاً　　بأهل ودّيَ من قومي وأشياعي

فنسيمها كنسيم الجنة يحمل ريا الأزاهير من أرض وطنه الطرية اللينة ، ويتساءل هل يجتمع إلى أهله ويرى أشياعه وأنصاره ومحبيه من أهله وبني قومه . والشعر الوطني كثير في أدبنا العربيّ يعيينا حصره وعرضه في هذه الصفحات القليلة ، فقد مرت بالوطن العربيّ هزات عنيفة على مر الأجيال ، خرجوا من جنان النعيم ، فغادروا الأندلس في القديم وذكروا في كل مناسبة أو لكل حادثة أرضهم الحبيبة . والحدائق الغناء التي كانت تلف منازلهم والقصور الشماء التي كانت موضع أنظارهم ، والهواء العليل الذي كان يغذي صدورهم ، فبكوها بكاء لا ينقطع ، وأرسلوا فيها من الشعر ما لا يحدّ . والناس يذكرون قصيدة الرندي في مدح الأندلس ورثائها ، ويعرفون ملازمته للذكرى الخالدة .

ونكبوا بهجمات الترك والتتار والمغول ، وهجروا ديارهم لهجمات هؤلاء البرابرة ، وبكوا في قصائد عامرة بعدهم وحبهم ، ومدحوا أوطانهم مديحاً تسيل فيه المدامع وتختلط فيه الزفرات بالأشواق وعاطر الثناء .

وهجمت عليهم جيوش الغرب في القرن الثالث عشر للميلاد باسم الدين واحتلت جزءاً من أراضيهم ، فهجروا وسافروا وتغرّبوا ، ومدحوا كذلك ما خلفوا . ولا تسل عن قصائدهم حين عادت هذه الجيوش ثانية ، باسم الحضارة والمدنية والانتداب ، فهاجر الأحرار وأرسلوا مديحهم في الوطن وحب الديار بما يملأ الصفحات ثنـــاء عاطراً على الغوطتين ومشارف بردى وقاسيون ، وشطآن دجلة والنيل .

وضاقت نفوس كثير منهم بالحكم العثماني فهاجروا إلى ديار العالم الجديد . ولكن قلبهم ظل عالقاً بصخور لبنان وينابيع الشام وطرق يبرود وحمص وأرسل شعراء المهجر في مديح وطنهم الأول مديحاً فيه غصة وحنين وإكبار واحترام .

وأما الهزة الأخيرة لأهل فلسطين ، فقد قال فيها الشعراء من سكانها وغير

سكانها ما يتضاءل دونه الشعر الماضي ، فأنشدوا في مديحها كذلك وهم يمزجون الحنين بالألم وهول الفاجعة . ونحسب أن هذا الشعر الوطني الذي يتغنى به أهل المشرق والمغرب جديد في نظمه وخياله وتعبيره . قد أخذ عن الشعر الغربي شعور أهل الغرب بحب الوطن ، حتى لكأنه يقف له أو يقلده أو يترجمه .

* * *

٢ — البلدان :

تعلّق الشعراء منذ القديم بحواضر معينة فامتدحوها بشعرهم ، وكان من ذلك ديوان ضخم ، تسيل فيه عواطف الحب والإعجاب والحنين ، ويطفح بوصف الأنهار والربى والجوامع والساحات والأبنية والأماكن فيها . فقالوا إلى مكة والمدينة . وقالوا فيهما شعراً كثيراً هو أقرب الأشياء إلى الشعر الديني لما يظهر فيه من حب للكعبة وتقديس لروضة الرسول ، وذكرى ولادة المجد وانبعاث النور .

وقالوا في بغداد كثيراً ، لأنها ظلت موطن الملك ومحط الأنظار ومصنع التاريخ الإسلامي خلال قرون عدة . فقال شاعرهم ابن زريق :

هيهات بغدادٌ الدنيا بأجمعها عندي وسكان بغداد هم الناس

وقال فيها شاعر مفلس يصفها في غرابة :

سقى الله بغداد من بلدة حوت كلّ ما لذ للأنفس
ولكنها منيـــة الموسرين كما أنها حسرة المفلس !

وقال فيها شاعر آخر يفضلها على الشام من قصيدة :

تنامُ بها عين الغريب ولا ترى غريباً بأرض الشام يطمع في الغمْض

ولن نستنفد هنا أجمل ما قيل فيها . فكله جميل تجده في تاريخها وفي الكتب

التى تشيد بمحاسنها . وتستطيع أن تقع على شعر كثير فى كل بلدة سكنها شعراؤنا ، وتجد بعضه فى معجم البلدان لياقوت ، أو فى كتب فضائل البلدان ، فقد ألف فيها القدماء ، وجمعوا محاسن الأقوال وأطايب الشعر والنثر ، وأكثر هذه الكتب مطبوع قريب المتناول ، فى فضائل حلب ودمشق وبغداد ومصر ومكة والمدينة وغيرها من المدن مما نذكره وما لا نذكره . ولو جُمع الشعر الذى جاء فى مدحها لأربى على ديوان كبير فى هذا الباب .

فقد قال الشعراء فى مدح همذان على شدة بردها وزمهريرها ، وقالوا فى هراة لخصبها وتفاحها ونرجسها ، وقالوا فى بخارى والشاش ، كما قال أبو فراس فى الموصل وحلب ، وقال كشاجم فى مدح مصر :

كأنها الجنة التى جمعت ما تشتهى الأعين والأنفسِ

وقد اشتهر الصنوبرى بمدح البلدان ، فأشاد بحلب ووصفها فى قصيدة طويلة ، رسم فيها جامعها وسروها وساحاتها وميادينها وحاراتها ، مما عرضنا لبعضه فى كتاب الوصف ، لدقة ريشته وخصب قريحته ، فهو يقول فيها :

أنا أحمى حلباً دا رًا وأحْمى مَنْ حَمَاها
أىّ حسن ما حَوَته حلبٌ أو ما حواها
فاخِرى يا حلب المدْ ن يزد جاهُك جاها
فلعمرى إنْ تلك المدْ نُ رخاخاً كنتِ شاها

يرى الحسن فيها فيفاخر بها مدن العالم ، وهى فى نظره شاه الشطرنج والمدن الباقية رخاخ فيه . ويمتدح دمشق كذلك فيرى الدنيا فيها ، تفيض بها جداول الماء خلال حدائق موشاة ، تكللها بالفواكه فى أبهى المناظر :

صفَتْ دُنْيَا دمشق لساكنيها فلَسْتَ تَرى بغير دمشق دُنيا

ولم يقف الشعراء القدماء عند وصف عام للمدن وإنما تغلغلوا فى صميمها ، فرسموا أنهارها وجبالها وأوديتها وقصورها ، وبرع الأندلسيون فى ذلك براعة لا يسبقهم فيها شاعر مدّاح. فلكل نهر قصة ، ولكل بلد فضيلة ومكانة ، تجد بعضه فى كتاب « الروض المعطار » عن جغرافية الأندلس ، فتسمع لابن عبد ربه وابن خفاجة ، وابن درّاج ينشدون أروع الشعر فى جمال البلدان والثناء على هوائها وإقليمها ومناظرها .

* * *

والشعراء المحدثون مدحوا البلدان كذلك ، فأثنوا على ما رأوا فى الوطن وغير الوطن ، فقال شوقى فى مدح باريس ، والنيل ، وبردى ، ودمشق ، وزحلة ، ولبنان ، والآستانة ، وأسبانيا .

ومن قوله فى دمشق :

قَالَ الرِّفَاقُ ، وَقَدْ هَبَّتْ خَمَائلُها   الأَرْضُ دَارٌ لها الفَيْحَاءُ بُسْتَانُ

جَرى وَصَفَّق يلقانا بها بَرَدى   كما تلقَّاك دُون الخلد رضوانُ

فوصف مدخل دمشق والخمائل من يمين وشمال تحف بالوافد وتتلقاه فكأن الدنيا دار واسعة وبستانها (الفيحاء) ، وبردى يشق الطريق مسرعاً ليرحب بالزائر الكريم ، كأنه رضوان فى جنان الخلد ، ومن قوله فى بيروت :

لبنان والخلد اختراع الله لم   يوسم بأزين منهما ملكوته

هو ذروة فى الحسن غير مرومة   وذرا البراعة والحجى بيروتُه

فهو يجعل لبنان مقروناً إلى الجنه من أجمل ما أبدع الله ، لأنه ذروة فى الحسن ، وعاصمته رأس فى البراعة . ومدح مطران مسقط رأسه بعلبك من لبنان وأنشد فى الثناء عليها قصيدة عامرة . وقد شاقه الحنين إليها ، ومدح عادل الغضبان بلده حلب ، وقد طال مقامه فى مصر واشتد حنينه إليها فلما استقبلته

عانقها بهذه الأبيات :

حتى بَدَتْ حَلَبٌ حَسْناءَ لَابِسةً ثَوْباً أَغَرَّ بِوشْىِ اللهِ مُزْدَانا
تمثَّلتْ لِىَ سلطاناً وقامتُها تاجاً يتيه بهِ عِزًّا وسلطانا
تحكى حَدَائِقُها حقَّتْ منازلَها بحرًا سحيقَ المدَى بالسُّفْنِ ملآنا

ثم يصف المآذن فى قلب هذا البحر السحيق ، ويرسم هذا البلد القديم ، وقلعته فى قلبه كتاج يثنيه على مفرق الحاضرة . شاهداً على العز والسلطان ، ويرى أنه سافر من وطن إلى وطن « يا بارك الله فى القطر من أوطانا » .

ومدح على محمود طه مدناً فى الغرب . وأنشد محمد عبد الغنى حسن فى مديح كثير من المدن الأوربية عرفها وأقام فيها . فعاج بالذكرى إليها بملأ الحنين نفسه . فصاغ فيها ذوب عاطفته ورقيق شعره .

ومدح كثير من شعرائنا مدناً فى البلاد العربية كالبصرة وبغداد وقرى لبنان ؛ كما مدح شعراء المهجر منبت عزهم ومولد عبقريتهم . وقد جرى قلمنا فى عرض قصائدهم لكتاب الوصف . فلن نعيد القول هنا وإنما نشير إشارة عابرة إلى أن المديح تناول عند العرب الأحياء وغير الأحياء ، حين استطاعوا أن يتخيلوا هؤلاء قريباً منهم يناجونهم كالأحياء . أو يتمثلوا الجماد يتكلم ويسمع . وقد تعلق شعرهم بالرؤساء والأمراء والوزراء والعلماء ، سعياً وراء الشهرة حيناً ، أو طواهاً على أبواب الوجهاء فى كسب المال . أو تعبيراً عن عاطفة دينية . أو إظهاراً لشعور التشيع . أو مشاركة فى السياسة ، أو ثناء على الأوطان ، وإشادة بعامر البلدان .

فهرست

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٥٧٠٨
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3757 - 4 ISBN

١ / ٩٢ / ١٥٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

مجموعة
فنون الأدب العربى

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربى ألواناً من الفنون الأدبية التى عالجها الأدب العربى فى مختلف أقطاره وعصوره. فهى تقف أمام كل فن أدبى فتعالجه فى جزء أو أكثر من هذه السلسلة التى سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التى تكون فى مجموعها ذلك الهيكل الأدبى الضخم الذى شيدته العربية فى تاريخها الطويل..

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربى لا على طريقة السنين، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا فى كتب التاريخ الأدبى... ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون... فللمقامة موضوع، وللقصة موضوع، وللغزل موضوع، وللوصف موضوع... وهكذا ستكبر هذه المجموعة على قدر ما فى الأدب العربى من فنون.

صدر منها :

- فى الفن الغنائى : الغزل (جزءان)، الرثاء، الوصف، المديح، الفخر والحماسة، الهجاء، الموشحات والأزجال.
- فى الفن القصصى : المقامة، التراجم والسير، الرحلات، الترجمة الشخصية.
- فى الفن التمثيلى : المسرح.
- فى الفن التعليمى : النقد، الخطب والمواعظ، الحكم والأمثال

تحت الطبع :

- فى الفن الغنائى : الزهد والتصوف.
- فى الفن القصصى : الملحمة، القصة، الحكاية والأقصوصة.
- فى الفن التمثيلى : الفاجعة والمأساة، الملهاة.
- فى الفن التعليمى : منظومات الشعر.

٩٤٩٠